جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية

الأسس الأخلاقية
في
التراث الفكري الإسلامي

الدكتور

هيثم محمد علي محمد

دكتوراه الآداب في الفلسفة الإسلامية، باحث في الفلسفة الإسلامية

الأسس الأخلاقية في التراث الفكري الإسلامي

هيثم محمد علي محمد
الآداب في الفلسفة الإسلامية، باحث في الفلسفة الإسلامية
الإيميل: haithamali1983@yahoo.com

ملخص البحث:

- أن الأسس الأخلاقية في النظام الإسلامي تتميز بطابعين:

الأول: أنها ذي طابع إلهي، بمعنى أنها مراد الله (ﷻ).

الثاني: أنها ذي طابع إنساني، أي للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية.

- الأخلاق الإسلامية منح كامل شامل يتناول الإنسان من جميع الجوانب – عقلية وحسية وعاطفية– من غير إفراط أو تفريط، ثم يخرج هذا المفهوم إلى الواقع الإنساني بآلية العمل الأخلاقي الذي يرفض الصورية المتزمتة من ناحية، ويهتم بالقيم ويحفظها من الطمس من ناحية أخرى.

- النظام الأخلاقي في الإسلام يحتضن في رحابه كل الفضائل الإنسانية والأعمال الخيرة، ويدخل في نطاقه كل سلوك إرادي صادر من إنسان راشد، كما يتناول الأفعال الظاهرة والباطنة من مقاصد ونيات وإرادات.

- إن الإلزام الخلقي في الإسلام يستند إلى ما قرره الإسلام عن طبيعة الإنسان من حيث كونه حراً مختاراً وهدى إلى طريق الفضيلة والرذيلة، ففي الإنسان من حيث كونه فاعلاً، عنصراً أخلاقياً بالمعنى الحق، وفي الأمر الخلقي عنصر آخر هو العقل والحرية، والمشروعية، وتلك هي العوامل الأساسية في الالتزام الخلقي، ولذا كان القرآن يقف موقفاً مدافعاً أمام عدوين خطيرين للأخلاق الإسلامية؛ أولهما: الهوى دون تفكير، والثاني: الانقياد الأعمى دون تمييز.

إذاً فالالتزام الخلقي يقوم على مصدرين أساسين؛ **أولهما:** النور الفطري، **والثاني:** النور الشرعي، والأمر اختيار حر دنيوي ليس مفروضاً علوياً، ويرجع استخدامنا الحسن أو السيئ لملكاتنا وقدراتنا، وهي ملكات يزكي تثقيفها النفس، كما يدسها ويطمسها إهمالها.

– أن كل مسئولية تفترض الإلزام سلفاً ويتبعه الجزاء، وقد رأينا أن الإنسان مكلف، والأخلاق الإسلامية قائمة على التكليف، وهذا يعني أن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التي تلزم الإنسان بالعمل الخلقي.

– إن ربط الإسلام القيم الأخلاقية بالجزاءات المتنوعة له قيمة تربوية لتنشئة الصغار والكبار ولنجاح التربية الأخلاقية في المراحل التعليمية المختلفة ذلك أن معرفة الناشئ بتلك الأنواع من الجزاءات المترتبة على السلوكيات الأخلاقية تعد من أقوى الحوافز والدوافع القوية إلى الالتزام الدائم بالقيم الأخلاقية.

– إن الإسلام أقصر الجزاءات الأخلاقية لدفع الناس بالقوة إلى الالتزام بهذه القيم وذلك يدل على اهتمام الإسلام في بناء الفرد والمجتمع والأمة.

الكلمات المفتاحية: الأسس الأخلاقية، التراث، الفكري، الإسلامي.

Ethical Foundations in the Islamic intellectual Heritage

Haitham Muhammad Ali Muhammad
Arts in Islamic Philosophy, Researcher in Islamic Philosophy.
Email: haithamali1983@yahoo.com

Abstract:

The ethical foundations in the Islamic system are characterized by two characteristics:The first: It is of a divine nature, in the sense that it is what God, Glory be to Him, wants.

The second: It is of a human nature, i.e. a person has an effort and an input in defining this system from a practical point of view

Islamic ethics is a complete and comprehensive grant that deals with man from all aspects - mental, sensual and emotional - without excess or negligence.

The ethical system in Islam embraces all human virtues and good deeds, and includes within its scope all voluntary behavior emanating from an adult human being.

The moral imperative in Islam is based on what Islam decided about the nature of man in terms of his being free and chosen and guided to the path of virtue and vice. In man, in terms of his being an actor, there is a moral element in the true sense, and in the moral matter there is another element, which is reason, freedom, and legitimacy, and that is The basic factors in moral commitment, and therefore the Qur'an stood a defensive position in front of two dangerous enemies of Islamic ethics. The first: passion without thinking, and the second: blind submission without discrimination.

So, moral commitment is based on two main sources; The first of them: the innate light, and the second: the legal light, and the matter is a free, worldly choice that is not imposed from above, and our good or bad use of our faculties and

abilities, and they are faculties whose self-education purifies, just as their negligence tramples and obliterates themThat every responsibility presupposes obligation beforehand and is followed by punishment, and we have seen that man is obligated, and Islamic morals are based on obligation, and this means that Islamic ethics is based on responsibility that obliges man to moral work.

-The linking of Islam with moral values with various penalties has an educational value for the upbringing of young and old, and for the success of moral education in the various educational stages.

- Islam is the shortest moral sanction to push people by force to abide by these values, and this indicates Islam's interest in building the individual, society and nation.

Keywords: Ethical Foundations, Heritage, Intellectual, Islamic.

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد (ﷺ) وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، **أما بعد؛**

فإن الأخلاق هي جوهر ووعاء الرسالة التي جاء بها محمد (ﷺ) من عند ربه، وظل يربى عليها صحابته رضوان الله عليهم، حتى وصلتنا هذه الأخلاق الإسلامية في حلةٍ جميلة، تعشقها النفس، وتهفو إليها الروح.

ومن المعلوم أن الهدف من دراسة التراث الفكري الإسلامي والتعاليم الدينية المختلفة، هو أن تظل ماثلة أمام أعيننا، نترجمها إلى أفعال إيجابية على أرض الواقع، لا أن نظل نرددها، لا تتجاوز الحناجر، لتغيب فيما بعد عن عقولنا وعن مراحل تعليمنا، فيتمسك جيلنا بأخلاق أخرى، لا تخدم مستقبل أمتنا الإسلامية حتى بدأ نجمُ الأخلاق يأفلُ في العالم الإسلامي.

ففي السنوات الأخيرة أصبحت بعض الدول الإسلامية لا تلقي بالا لمادة التربية الإسلامية – وكلما فكرتُ في هذه الظاهرة السيئة– يتملكني الاستغراب حين أسمع عن أسماء كليات جديدة في العالم العربي والإسلامي، ولا أرى مادة الأخلاق الإسلامية في كل تخصص بكل كلية في جامعاتنا المختلفة، فأي تقدّمٍ تريده أمة بدون أخلاق؟. إن سبب تأخرنا عن الركب الحضاري يعود إلى جهلنا بأهمية الأخلاق في حسم الصراع التاريخي بين الأمم، فمنذ اليوم الذي أُصبحت مادة التربية الإسلامية تعيش على هامش الجدول الدراسي في مؤسساتنا التعليمية، أصبحنا نعيش على هامش الحضارة، وما زلنا في سقوط مدويّ

للأسف. إذا تأملنا قليلا سنجد أن أغلب العلوم الحياتية تم تطويرها، لكن الأخلاق الإسلامية – حسب علمي– لم تجد حظَّها من التطوير كي تقبل عليها الشعوب الإسلامية من جديد لتأخذ مكانتها التي تليق بها بين الدول، أعتقد أننا لو بذلنا جهدا مضاعفا في تطوير علم الأخلاق الإسلامية والنزول به إلى أرض الواقع عمليا، لكان الآخر يتعلم منا، ويستجلب العادات والأخلاق، لكن نجحت الدول الغربية في غزونا بثقافاتها، فنسينا كل شيء له صلة بالأخلاق، ونسينا أن الأخلاق شرطٌ في بقاء الأمم، فعندما تغيبُ الأخلاق تنعدم الأمم.

ومن هنا جاءت أهمية البحث وسبب اختيار الموضوع بأن الأخلاق ضرورة للحياة البشرية واستقرارها ونمائها وهى تخلق نوعا من التآلف والانسجام والتوافق والتعاون بين أفراد المجتمع، ويؤدى ذلك إلى شعور هؤلاء الأفراد بالسعادة والرضا، والأخلاق قوام الحياة الخيرة الطيبة التي تمنح حياة الإنسان معناها ومغزاها وقيمتها.

فإذا كانت الأخلاق ضرورة في نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهي في نظر الإسلام أكثر ضرورة وأهمية بكونها أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحيتين المادية والمعنوية، فالإنسان –دائما – بحاجة ماسة إلى نظام خلقي يحقق حاجته الاجتماعية، ويحول دون ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه إلى استخدام قواه في مجالات يعود فيها النفع عليه وعلى غيره، ويجيب على تساءلنا عن ما هذه القوى التي باستطاعتها دفعه إلى الخير له ولجميع من حوله؟ وما هي القوى التي تستطيع أن تلزمه بفعل أخلاقي؟.

فالإسلام يدرك تمام الإدراك ماذا يحدث لو أهملت هذه المبادئ الأخلاقية في المجتمع، وساد فيه الخيانة والغش، والكذب والسرقة، وسفك الدماء، والتعدي على الحرمات والحقوق بكل أنواعها، وتلاشت المعاني الإنسانية في علاقات الناس، فلا محبة ولا مودة، ولا نزاهة ولا تعاون، ولا تراحم ولا إخلاص،

سيكون بلا شك المجتمع جحيما لا يطاق، ولا يمكن للحياة أن تدوم فيه ؛ لذا جاء الإسلام بأسس ومعايير يتحتم علينا السير وفقا لها وهي ليست أسسا ومعايير وضعية، وإنما وحي يوحى على هيئة أوامر ونواه ومباحات ومحظورات فمن أطاع الله أثابه ومن عصاه عاقبه.

كما تمتاز هذه الأسس الأخلاقية بأنها واقعية عملية وليست مثالية، كما أنها تؤكد حرية الإنسان واختياره ومسئوليته عن فعله، وتتميز أيضا بأنها إيجابية شاملة بعيدة عن الانحراف والغلو، وهي بذلك صالحة لكل زمان ومكان. كما أن الإسلام شرع أحكاما تتمثل في الجزاءات لحماية المجتمع من التردي الخلقي الذي يؤدى إلى الهلاك، وذلك واضح في العقوبات الحدية والتعزيرية.

وهذا ما نوضحه في هذا البحث من خلال خطته التي تتمثل في ثلاث مباحث:

المبحث الأول: ماهية الأسس الأخلاقية في الإسلام.

المبحث الثاني: الإلزام والالتزام الخلقي.

المبحث الثالث: المسئولية والجزاء الأخلاقي.

منهج البحث

اقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع استخدام **المنهج التكاملي** الذي يندرج تحته مناهج البحث المختلفة " **التاريخي والاستقرائي والتحليلي والمقارن** " والتعامل مع كل مسألة من مسائل البحث بما يناسبها من هذه المناهج، وتوثيق المعلومات من مصادرها الأصلية والاعتماد في الإحالة على الكتب المتخصصة في هذا الموضوع.

المبحث الأول
ماهية الأخلاق في الإسلام

الأخلاق في الإسلام عقيدة إلهية نابعة من الإيمان بالله وطاعته في أوامره ونواهيه، وابتغاء رضوانه في سائر مجالات الحياة، كما تتميز بأنها إيجابية وإلزامية، لما وراءها من قوة وازعة لا يملكها أي نظام خلقي آخر في الوجود، وهذه القوة الوازعة نفسية تمثلها خشية الله وطلب رضاه في الدنيا، والطمع في جنته ونعيمه، والخوف من معصيته وعقابه في الدنيا والآخرة والإنسان ذو إرادة حرة قادراً على استخلاص السلوك الحسن وفعله[1].

فيمكن تعريف الأسس الأخلاقية على أنها "المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، والتي يُحددها الوحي أو تفهم من خلال نصوصه، لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم.

وتتميز هذه الأسس في النظام الإسلامي بطابعين:

الأول: أنها ذي طابع إلهي، بمعنى أنها مراد الله (ﷻ).

الثاني: أنها ذي طابع إنساني، أي للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية.

وهذا النظام هو نظام العمل من أجل الحياة الخيرية، وهو طراز السلوك وطريقة التعامل مع النفس والله والمجتمع، يتكامل فيه الجانب النظري مع الجانب العملي منه، وهو ليس جزءاً من النظام الإسلامي العام فقط، بل هو جوهر الإسلام ولُبه وروحه السارية في جميع جوانبه ونواحيه.

---

(١) **د. عبدالقادر البحراوي:** دراسات في فلسفة الأخلاق عند المسلمين، الدار الأندلسية، الأسكندرية، ٢٠١٩، ص ٢٣ وما بعدها بتصرف.

فإن الباحث في التراث الفكري الإسلامي يجد كيف قرأ علماء المسلمين القرآن الكريم متدبرينً آياته متفهمين لمعانيه يصل إلى نتيجة حتمية هي من أهم المقاصد القرآنية كنشر الأخلاق(١) والدعوة إلى الفضيلة والعمل الصالح، والنهي عن المنكر، فهو أعظم دستور أخلاقي على الإطلاق، فلم يكن مجرد كتاب للعلوم أو الآداب، وإنما أُنزِل ليكون كتاب هداية، فهو جامع للأسس الأخلاقية التي تصلح بها الحياة وتسعد النفوس، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سعياً للوصول بالناس إلى أعلى درجات الرقي الإنساني فقال تعالى: {**إِنَّ هَذَا الْقُرآن يهدِي لِلَّتِي هِي أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرَاً كَبِيراً**} **[سورة الإسراء: الآية: ٩]**

وتنبع هذه الأسس الأخلاقية في الإسلام من أصلين(٢):

الأصل الأول: وهي عقيدة التوحيد التي نادى بها رسول الله (ﷺ) وجددها، بالإضافة إلى الشريعة التي أنزلها الله عليه، فهي الأساس الضروري للحياة الإنسانية الطيبة لأنها هي التي تضع للمجتمعات البشرية النظم والقوانين الملائمة لحياة الفرد والجماعة وفقاً لكافة القيم الخلقية العليا.

والأصل الثاني: وهو الإيمان باليوم الآخر كضرورة لتوجيه السلوك الإنساني، إذ يكون له كالطاقة التي تزوده بالاستعداد النفسي للتضحية بمتاع الدنيا الزائل وتحمل المشاق في سبيل وغاية الوصول لجنة الله ورضوانه، وهذا الاستعداد لا يملكه إلا من كان يؤمن إيماناً عميقاً بأنه سيقف أمام الله تعالى يوم القيامة ليحاسبه عما عمل في حياته الدنيوية فيكافئه أو يعاقبه على حسب عمله.

---

(١) **د. عبدالقادر البحراوي:** دراسات في فلسفة الأخلاق عند المسلمين، الدار الأندلسية، الأسكندرية، ٢٠١٩، ص ٦٣ وما بعدها بتصرف.

(٢) **د. مصطفى حلمي:** الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت ٢٠٠٤م، ط١. ص١٤١.

وبخلاف هذه العقيدة وهذا الإيمان فقد رأينا كيف تدهورت الأنظمة والقواعد الأخلاقية عندما قطعت صلتها بمصدر الوحي الإلهي، واعتمدت على فلسفات البشر وتشريعاتهم عوضاً لذلك فأصبح الاحتمال قائم وقوع العالم فيما يشبه الفوضى المؤدية إلى فساد الفرد والجماعة.

وعندما نرى حرص أصحاب الاتجاهات الأخلاقية فd العصر الحديث على رفع أصواتهم محذرين ومنذرين لمجتمعاتهم من التدهور الأخلاقي وبوجوب وضع أسس وقواعد صحيحة للإقرار بالقيم والمبادئ، نعرف بأن هذا يدل أن الإنسان ليس جسداً ذو غرائز وشهوات فحسب ولكنه أفضل من ذلك وأسمى، وأن شقاؤه الحقيقي هو ناتج عن عجزه المواءمة بين جسده وروحه، أي بين متطلبات جسده واحتياجاته وبين شوق الروح وتطلعها نحو الأسمى والأفضل(١).

ومن هنا نرى بأن المنهج الذي اتبعه علماء المسلمين يتصل بالتصور الصحيح لحقيقة الإنسان ودورته في الحياة، بداية بخلق آدم ثم نزوله إلى الأرض ابتلاءاً واختباراً، ومصاحبته مع شريعة الله تعالى التزاماً بأوامرها وتنفيذاً لأحكمها، وارتفاعاً بمستواها الإنساني إلى العمل بمكارمها حتى ينتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ويعود أدراجه إلى موطنه الأصلي – إذا اجتاز الابتلاء الدنيوي بنجاح– أي إلى الجنة.

وعندما نرجع إلى المقارنة بين الإسلام كمصدر للأخلاق عند علماء المسلمين، وبين الدين والأخلاق في أوربا حيث انسلخت العلوم والآداب والنظم الاجتماعية عن الدين وحلت محلها مفاهيم بشرية في كافة العلوم والنظم فأصبحت الحضارة الأوربية وفلسفتها تعالج شئون الروح وعندما عاد أهل

(١) **د. مصطفى حلمي:** الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، ص١٤٢.

أوربا في العصر الحاضر إلى المادية وأعجزتهم المشاكل الحياتية بدأ البحث في الأديان واللجوء إلى بيوت العبادة.

وفي المقابل نجد إن الإسلام وباعتباره – خاتم الأديان – فقد جاء كاملاً متكاملاً للبشرية جمعاء– فلقد جاء هذا الدين وبصفة كاملة ونهائية مسلك الإنسان في الحياة الدنيا المتجه إلى الآخرة بالضرورة، وأن الأخلاق الحسنة كما يقول الإمام الغزالي: "صفة المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، على التحقيق شطر الدين وثمرة المتقين، ورياض المتعبدين، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والملكات الدامغة، والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة المبعدة عن جوار رب العالمين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة في القلب إلى نعيم الجنان، وجوار الرحمن والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب، وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد"(١).

كما أن الأخلاق عنصر أساسي في بناء شخصية الفرد، وصلاحها يتوقف على صلاح أفعال الإنسان، ومن أفعال الإنسان تتضح حقيقته ويظهر حسن خلقه، فسلوك الإنسان موافق لما هو مستقر في نفسه من معانٍ وصفات، وما أصدق قول الإمام الغزالي: "فإن كل صفة تظهر في القلب، يظهر أثرها في الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة" ومرد ذلك إلى أن صلاح الفرع بصلاح أهله، وإذا فسد الأصل فسد الفرع(٢).

---

(١) **الإمام أبوحامد الغزالي:** إحياء علوم الدين، دار المنهاج للنشر، جدة ٢٠١١م، ط١، ج٣، ص٤٢.

(٢) **د. أحمد ماهر:** القيم الأخلاقية في الإسلام، مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية، ١٤٠٣هـ، ط١، ص٩.

وهي كذلك عنصر أساسي في شخصية الأمة بأسرها[1]، فإن للأخلاق أثراً قوياً في بناء المجتمعات، وفي كسب المعارك الكبار، إذ أن أثر الأخلاق في تعبئة الروح المعنوية يعرفه كل إنسان به آثاره من ضمير، به قادة الحروب قديماً وحديثاً، فالأخلاق في الأمم عنوان حياتها ومصدر عزها وسؤودها.

فكان الانسجام في الحياة النفسية لدى المسلمين، ولهذا السبب لا نجد الكثير من المشكلات والأزمات النفسية والعصبية والأخلاقية في المجتمع الإسلامي بالقدر الذي نجده ونراه في المجتمع الغربي _ من أمراض نفسية معاصرة ومظاهر في الانحدار الأخلاقي _ أي مع أساليبه ونظمه في المذاهب والفلسفات والحياة الاجتماعية والسياسية[2].

ومن ذلك نجد أن الإسلام في عباداته وشرائعه ومبادئه قد خط أحسن الطرق للإنسان باعتبارين:

الأول: إن طبيعة الإنسان تجمع بين الجسد والروح.

الثاني: الحياة الإنسانية هي امتداد من الدنيا إلى الآخرة.

كما تتميز الأخلاق الإسلامية عن غيرها من الأخلاق الأخرى بأنها أخلاق إنسانية وعملية في آن واحد، والقليل من الفلسفات الأخلاقية سواء القديمة منها والحديثة التي عنت أو اهتمت بهذين الجانبين، سواء من ناحية التنظير أو من ناحية التطبيق، فالأخلاق الإسلامية منح كامل شامل يتناول الإنسان من جميع الجوانب – عقلية وحسية وعاطفية– من غير إفراط أو تفريط، ثم يخرج هذا المفهوم إلى الواقع الإنساني بآلية العمل الأخلاقي الذي يرفض الصورية المتزمتة من ناحية، ويهتم بالقيم ويحفظها من الطمس من ناحية أخرى[3].

---

(١) **د. أحمد الملا:** عالمية الإسلام وإعداد المواطن الصالح، طباعة دار قتيبة، القاهرة ١٩٧٣م، ط١، ص٣١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٣، ١٤٤.

(٣) **د. احمد ماهر:** القيم الأخلاقية في الإسلام، ص١٠.

ولم تكن الفلسفة الأخلاقية اليونانية وهي في أفضل عصورها فلسفة إنسانية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، بل إنها لم تنشأ للحصول على فلسفة أخلاقية عملية لحاجة الإنسان إليها لأنها لم تكن لجميع الناس على حد سواء، ونجد ذلك واضحاً عندما يدعوا أرسطو بقوله إن العبيد لاحظ لهم في السعادة، ما دام لاحظ لهم في الإنسانية بالمعنى الكامل، بل إن السعادة عنده لا يتمتع بها إلا الحكماء العارفين، ويتبين من هنا كيف كانت هذه الفلسفة في أغلب اتجاهاتها عقلية وأنها غفلت الواقع الذي هو ملك للناس جميعاً فقط لأنهم لا قدرة لهم على التأمل.

أما الأخلاق الإسلامية فإنها مع الاحتفاظ بالدين كمثل أعلى للأخلاق فهي تهتم بأبسط الشئون الدنيوية، فهي أخلاق دنيا ودين، فالخير فيها يمتد من الشئون الدنيوية البسيطة إلى الخير المطلق وهو "الله"، وهي أخلاق عملية بتحديدها لعملية السلوك الإنساني، فالذي يحظى باهتمام الإنسان المسلم هو الفعل أو العمل الذي يختلف عن منطق المعرفة، فالمعرفة تستعين بالفعل لتعريف الأشياء، أما العمل فهو يستعين بالإرادة من أجل تحديد الغاية والوسائل(١).

والحديث في هذا المبحث قائم على بيان الخصائص الهامة والبارزة للأخلاق الإسلامية التي تبين ملامح وطبيعة تلك الأخلاق، وتوضح سماتها وقسماتها التي تنفرد بها وتجعلها نسيجاً واحدا بين النظريات والأفكار البشرية الناقصة القاصرة، كيف لا والأخلاق في الإسلام قائمة على الوحي الإلهي الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى رسول لم يعرف إلا بالصدق والأمانة والأخلاق الفاضلة.

(١) **د. نازلي إسماعيل:** فلسفة القيم، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٨م، ط١، ص١٢١.

ومن أهم هذه الخصائص الأخلاقية الإسلامية:

أولاً: أنها أخلاق ربانية المصدر:

فالأخلاق الإسلامية ربانية الغاية يزيد بها إرضاء الله (ﷻ)، ولابد حتى نصل إلى هذه الغاية من أن نسلك طريقاً واحداً سليماً يكون فيه منهجنا واضح، ولا يكون هذا المنهج واضحاً إلا إذا كان رباني المصدر، لأن الله (ﷻ) خالق الكون وموجده مطلع على ما يصلح الناس ويصلح لهم، غير صادر عن الفكر البشري أو إرادة فرد أو طبقة أو حزب.

وبهذه الحقيقة فاق الإسلام على كل منهج على هذه الأرض، لأنها إما منهج بشري محض أو إلهي قد حُرِّف وبُدِّل، ولذلك نجد أن رسول الله (ﷺ) كان في كل حركاته وتوجهاته يتوجه إلى الله يتلقى عنه ويبلغ الناس ما أمره الله به[1].

أي أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أحوالها، وحدد أساسياتها، والتي لابد منها لتبين معالم الشخصية الإسلامية، حتى تبدو متماسكة متميزة في جوهرها ومظهرها، عالمة طريقها حيث تبين الطرق والمسالك على الآخرين[2].

ثانياً: انبثاق الأخلاق عن العقيدة:

والمقصود بهذه الخاصية أن الأخلاق الإسلامية تقوم على قاعدة التقوى بمعنى الاتقاء والامتناع عن كل ما حرمه الله (ﷻ) وهي موصولة بالإيمان بالله، فالعقيدة والأخلاق حقيقتان لا تنفصلان، والقرآن أصل السلوك الإنساني، وليس بين الكلمة والسلوك العملي انفصال في الإسلام، وأن الصلة بين العقيدة والأخلاق عميقة جداً، حتى أنها لتبلغ حد التوحد بينهما، فالعقيدة وسيلة لتكوين

---

(١) **د. عبدالكريم زيدان:** أصول الدعوة الإسلامية، مكتبة القدس، دار الوفاء، ١٩٩٢م، ط٦، ص٤٤.

(٢) **خالد بن جمعة الخزار:** موسوعة الأخلاق، مكتبة أهل الأثر للنشر، الكويت ٢٠٠٩م، ط١، ص٢٨.

الخلق، والأخلاق مستمدة من العقيدة، ولا غنى لصاحب الأخلاق عن عقيدة تسمو به مطالب الحياة الدنيا(١).

والدليل على إنبثاق الأخلاق عن العقيدة في أن عناصر القاعدة الإيمانية هي التي تدفع المؤمنين بها إلى أن يتحلوا بالفضائل الخلقية، وأن يتخلوا عن رذائلها، وأن يلتزموا في حياتهم بكل سلوك خلقي تدعوا إليه مكارم الأخلاق، ويعد على ذلك بالفوز برضوان الله، واغتنام الأجر العظيم عنده، ويظهر ذلك من الربط بين الدين وحسن الخلق في القرآن والسُّنَّة المطهرة.

ثالثاً: الشمول والتكامـــل:

يُقر الإسلام شمول الأخلاق الفطري لآفاق الحياة فيحكمها بالفضيلة، فلا يحط الإسلام من الأخلاق الكريمة، ولا يأت بأخلاق جديدة، فلم تغادر الأخلاق الإسلامية صغيرة ولا كبيرة، ولا شاردة ولا واردة من الأخلاق الحسنة المعروفة إلا واحتواها ووضعها في المكان المناسب من حياة البشر.

ورسالة الإسلام رسالة عامة غير محدودة بعصر ولا جيل ولا بمكان ولا بأمة، رسالة شاملة تخاطب كل الأمم وكل الأجناس، بل لكل الشعوب ضعيفها وقويها، للسادة والعبيد؛ إنها رسالة الهداية من رب الناس لكل الناس ورحمة للناس، وهذا ما وضحه القرآن الكريم منذ بداية نزوله في العهد المكي، قال تعالى: {**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**} [سورة ص: الآية: ٨٧]. وقال تعالى: {**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**} [سورة الأعراف: الآية: ١٥٨].

ومن الآيات الكريمة يظهر لنا بأن رسالة الإسلام عامة لكل شئون الحياة في كل الأزمنة ومن الأمور التي شملتها رسالة الإسلام الأخلاق، ودائرة الأخلاق الإسلامية واسعة جداً، فهي تشمل أفعال الإنسان الخاصة بنفسه، أو المتعلقة

(١) **د. عبدالكريم زيدان:** أصول الدعوة الإسلامية، ص٨٦.

بغيره فرداً أو جماعة أو دولة، فلا شيء يخرج من دائرة الأخلاق مما لا نجد له نظيراً في أية شريعة سماوية سابقة، أو قانون وضعي[١].

ونذكر هنا على سبيل المثال، مدى مراعاة الأخلاق في علاقات الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول ليتبين لنا مدى حرص الإسلام على التمسك بمعاني الأخلاق، ووجه اختيارنا هذه العلاقات بين الدول هو ما شاع بين الناس ويؤديه الواقع، أن العلاقة بين الدول لا تقوم على أساس مراعاة الأخلاق، حتى أن أحدهم قال: لا مكان للأخلاق في العلاقات الدولية ولهذا كان الخداع والتضليل والغدر والكذب من البراعة في السياسة.

ولهذا كان من المقرر في شرع الإسلام أن على الدولة الإسلامية أن تلتزم بمعاني الأخلاق، وهذا التقرير موجود في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفي أقوال الفقهاء[٢]من أنه "لا يجوز للمسلم أن يخون أهل دار الحرب إذا دخل ديارهم بأمان منهم، لأن خيانتهم غدر ولا يصلح في دين الإسلام الغدر"[٣].

ثم أن النظام الأخلاقي في الإسلام يحتضن في رحابه كل الفضائل الإنسانية والأعمال الخيرة، ويدخل في نطاقه كل سلوك إرادي صادر من إنسان راشد، كما يتناول الأفعال الظاهرة والباطنة من مقاصد ونيات وإرادات.

---

(١) **محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين، مراجعة السيد بدوي، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت ١٩٧٣م، ط١، ص٦٨٩.

(٢) **د. عبدالكريم زيدان:** أصول الدعوة الإسلامية، ص ٩٢، ٩٣.

(٣) **محمد بن قدامة:** المغني على مختصر الخرقي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركى، دار عالم الكتب للنشر، بيروت ١٩٩٧م، ط٣، ج٨، ص٤٥٨.

رابعاً: الواقعية:

المقصود بالواقعية هنا مراعاة واقع الحياة في كل مرحلة حافلة بالخير والشر، ومراعاة واقع الإنسان أنه مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفخة من روح الله في غلاف من الطين ففيه العنصر السماوي والأرض.

ولا نعني بالواقعية ما عناه الفلاسفة الغربيون الملحدون – الماديون– حيث أنكروا كل ما وراء الحس وما بعد الطبيعة واعتبار الواقع هو الأشياء المحسوسة أو المتميزة (المادة) الذي له حجم وحيز، وما عدا ذلك مما أثبته الوحي أو العقل أو الفطرة فهو غير موجود.

لا نعني هذا لمفهوم الواقعية لمصادمته الوحي الإلهي، ولا نعني بالواقعية قبول الواقع على علاته والخضوع له على ما فيه من قذارة وهبوط، دون محاولة للارتفاع به وبذل الجهد في تنظيفه وترقيته.

والأخلاق في الإسلام واقعية وليست خيالية وبمقدور كل مسلم أن يتحلى بها، وبمقدور كل مسلم تأصيل هذه الأخلاق واكتسابها بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب، فمن أراد أن يتكلف تعاطي خُلق الجود وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليها مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعاً له، ويتيسر عليه، فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يجعل لنفسه خلق التواضع، وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة عديدة وهو فيها مجاهدة نفسه إلى أن يصير ذلك خلقاً وطبعاً فيتيسر عليه[1].

ونريد بالعملية أن أخلاق الإسلام ليست مثالية، أنها نظرية فوق التطبيق، بل هي منهاج عملي، فالإسلام لا يغرس المعروف بالمسلمين بالكلام والخطب

(١) **الإمام أبوحامد الغزالي:** إحياء علوم الدين، ج٣، ص٥٨.

والمقالات فحسب، فالحديث عن الشجاعة لا يكون بالكلام بل لابد له من واقع يثبته، فقد كان رسول الله (ﷺ) يحث على الشجاعة والثبات في أرض المعركة وكان أول الثابتين، وشاهد ذلك ما حدث يوم أحد ويوم حنين وشهادة الصحابة رضوان الله عليهم ثبت ذلك عملياً.

ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر والانتهاء عما نهى عنه من نواهٍ، والتقيد بالمثل العليا، فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وهي أعلاهن، وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، ومنها أيضا حاجة الإنسان وفطرته في حبه للمال، فلم يطلب منه التخلي عن كل ما يملك من ثروة وأمور معيشية، بل راعي حاجة الفرد والمجتمع إلى المال فاعتبره قواماً للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه.

المبحث الثاني
الإلزام والالتزام الخلقي

الإلزام من أهم الأسس التي يقوم عليها النظام الأخلاقي في الإسلام، والإلزام هو الالتزام من الإنسان في مواجهة البشرية كلها بناء على كونه مكلفا في هذه الحياة، وله أمانة ورسالة وله حرية الإرادة التي تحكم عمله، وتكون مناطا للجزاء، لذا كان الالتزام الأخلاقي أبرز معالم المسئولية الفردية.

أما أهميته فهو دعامة الأخلاق الكبرى، وتتضح ذلك في المعاني التالية:

١- إن زوال فكرة الإلزام يقضي على جوهر الغاية التي تحققها الأخلاق، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية، وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة العدالة.

٢- إن الخير الأخلاقي متميز بتلك السلطة الآمرة تجاه الجميع بتلك الضرورة التي يستشعرها كل فرد -أيا كانت الحالة الراهنة لشعوره -وهي ضرورة تجعل من العصيان أمرا حقيقيا مستهجنا.

ويشكل الإلزام الخلقي وما يترتب عليه من التزام قاعدة أساسية ومركزاً رئيسياً يدور العمل الأخلاقي حوله، وذلك لأن تصور فقده أو عدمه يمثل الخلل والفوضى بعينها، فليس هناك أي شك في أن الإلزام ثم الالتزام – بالرغم من تفاوت المواقف بصدده- يعني القواعد والأسس والحدود، ولولاه لكانت الفوضى والتسيب والانفلات، فلو لم يكن ثمة إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا انتفت المسئولية فلن يكون جزاء ولا عدالة، ولا يمكن أن نتصور الحياة الإنسانية – في ظل هذا الاضطراب- إلا عبثاً محضاً، وحاشا أن تكون الحياة عبثاً ولها خالق حكيم وضع كل أمر في موضعه الصحيح، وحدد لهذه الحياة البشرية غاية، ووضع لها ضوابط وحدود، إذا تجاوزها البعض فلا يمكن أن يتجاوزها

الجميع، وإذا خلا منها عصر أو جيل، فلا يمكن أن تخلو منها كل العصور أو جميع الأجيال[1].

والتوجه المبدئي بالنسبة للتراث الفكري الإسلامي – وإن اختلفت مواقف أصحابه – يعطينا انطباعاً بخط السير بصدد هذا الموضوع، فنقطة البدء في هذا التراث محكومة بضوابط وليست منطلقة من فراغ، فالحياة الإنسانية حياة أخلاقية ولا يمكن أن تكون غير ذلك، لها بداية ولها نهاية، فيها تكليف ومسئولية وإلزام، ثم يعقبها حساب وجزاء، فليس في هذا الفكر عبثية قط، يقول تعالى: {**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**} [سورة المؤمنون – الآية: ١١٥].

وفي البداية يجب علينا الاعتراف بأن القضايا الأخلاقية لدى المسلمين متداخلة بحيث يصعب الفصل بينها، إذ تشكل كلها نسيجاً واحداً، وكلا تتلاحم أجزائه، ومن ذلك على سبيل المثال تداخل موضوعات الإلزام والتكليف والمسئولية، وتداخل مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الكثير من القضايا الأخلاقية، بالإضافة إلى التداخل القوي في المعنى بين مفهومي الإلزام والتكليف.

وبما أن مصدر الإلزام والتكليف واحد في الإسلام وهو كتاب الله تعالى، وسنة نبيه – عليه أفضل الصلاة والسلام– وإجماع الأمة، ويضاف إليها أحياناً القياس والتكليف، نجد التداخل هنا واضحاً بين الإلزام والتكليف من جهة المصدر، بالإضافة إلى أن الملزم أو الموجه إليه الإلزام أو الكائن المكلف هو واحد أيضاً، ألا وهو الإنسان العاقل، إلا أن وجه الاختلاف النسبي بينهما هو أن

(١) **د. محمد أحمد عبدالقادر:** من قضايا الأخلاق في الفكر الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ٢٠١٧م، ط١، ص١٢٣.

جهة التكليف دائمة وأبداً محكومة ومحصورة بدائرة الشرع، بل وترتبط بها قضية الخلق والوجود نفسها، يقول الله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [سورة الذاريات: الآية: ٥٦].

وهكذا فان الحياة لا قيمة لها بغير غاية ننشدها وإذا كان الإنسان يشارك سائر الكائنات في خصائص ويتميز عنه في غيرها، وجب أن تكون هذه الغاية ملائمة لهذا الجانب الذي يميز طبيعته وبه يكون إنسانا ألا وهى الأخلاق.

يدور السلوك الأخلاقي حول الخير والشر والفضائل والرذائل ويصدر عن دوافع معينة و على هذا فالمذهب الأخلاقي لابد وأن يستند على أسس يقام عليها، وإن من أهم الأسس التي يقوم عليها صرح الأخلاق هو فكرة الإلزام، التي تعد الأساس الجوهري والمحوري الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله. فلا يمكن أن يتصور قاعدة أخلاقية بدون إلزام، لأن من أهم خصائص الأخلاق القويمة هو مدى ما فيها من قوة تدفع الإنسان إلى العمل بها، وبذلك كان الإلزام من أهم الأسس التي يقوم عليها صرح بناء الأخلاق، وبمقتضى هذا المبدأ فإن غياب فكرة الإلزام يقضى على جوهر الغاية التي تحققها الأخلاق الذي يؤدى بدوره إلى إنعدام النظام وإنتفاء المسئولية وبإنتفاء المسئولية ضاع كل أمل ي وضع الحق في نصابه وإقامة العدالة بل وسيسود الاضطراب والفساد و تعم الفوضى وتسود شريعة الغاب(١).

معنى الإلزام الخلقي والألفاظ ذات الصلة

<u>الإلزام الخلقي</u>: فهو من لزم وهو أن يوجب المرء على نفسه أمر من الأمور أو تركه بأمر من الغير، والإلزام مفهوم أخلاقي يدور حول ما ينبغي أن

(١) **د. محمد أحمد عبدالقادر**: من قضايا الأخلاق في الفكر الإسلامي، ص ١٢٤، ١٢٥.

يمارسه الإنسان من سلوك أخلاقي دون قسر أو إرغام من حيث هو قادر على الاختيار بين الخير والشر فيأخذ الإنسان بما يمليه القانون الأخلاقي(١).

والإلزام هو الشعور الذي يلزمنا على ما ينبغي على الإنسان إتباعه من سلوك واجتناب سلوك آخر، قد يرجع ذلك إلي عقوبات القانون التي يضعها المجتمع أو نواهي الدين أو مصادر أخرى بداخله تدفعه إلى فعل سلوك معين وترك الآخر

الألفاظ ذات الصلة بالإلزام:

الحتمية:

يرتبط مفهوم الإلزام بمفهوم الحتمية إذا كان الإلزام إلزاما خارجيا واتخذ صورة من صور الضغط الاجتماعي بمعنى وجود سلطة خارجية تمارس تأثيرها على الفرد فتجعله يفعل وفق قواعدها شاء أم أبى، فقد أمكن بذلك الجمع بينه وبين مفهوم الحتمية لأنه يقوم في هذه الحالة على عوامل تحد من حرية الإرادة.

الإلتزام:

كما يرتبط الإلزام بمفهوم الالتزام لأنه إذا ألزمت الجماعة أفرادها بقيمها وعاداتها وتقاليدها حتى لو خالف هذا ميول الأفراد تحول الإلزام إلتزاماً من قبل الأفراد فحين يمارس الشخص فعله إنسجامًا مع نظم تلك الجماعة والذي قد يكون مرغماً عليه أن يمارسه فهو يفعل هذا السلوك كأنه اختياره الخاص وذلك لأن ثمة تحول قد تم فقد تحول تأثير الجماعة الخارجي في تكوينه إلى تأثير داخلي يصبح مع الزمن كأنه نابعا من ذاته.

(١) **د. مراد وهبه:** المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة ٢٠٠٧، ط٥، ص ٨٤.

الواجب:

والإلزام حين يتحول إلى التزام أصبح مرادفاً لكلمة الواجب أو ينبغي أو بعبارة أخرى ما ينبغي عليك القيام به، وهذا بالرغم من أن الذي ينبغي عليك فعله والقيام به هو الذي لا تحب أن تفعله وبذلك تكون السعادة قربان الواجب فتضحي بسعادتك من أجل الآخرين ومن أجل ما يفرضه عليك الواجب كما ذكر أرسطو "السعادة هي قربان للواجب الذي لا ينبغي مطلقاً أن يتنازل لها عن شئ ما"(١).

خصائص الإلزام الخلقي:

وبذلك يكون الإلزام له من الخصائص ما تميزه وهى كالتالي:

١- **الإلزام** الخلقي سلطة آمرة تشتمل على الجزاء، فالفضيلة بالإضافة إلى جمالها الذاتي تعد أيضا مؤثرة ومحركة بطبيعتها، تدفعنا إلى العمل لكي نجعل منها حقيقة فعلية، لأن الخير الأخلاقي يتميز بتلك السلطة الآمرة تجاه الجميع، وبتلك الضرورة التي يشعر بها كل إنسان بوجوب تنفيذ نفس الأمر مهما كانت حالته الشعورية مما يجعل مخالفة ذلك بغيضة ومستهجنة(٢) يستشعرها كل فرد والتي تجعل من الطاعة أمراً محبباً ومن العصيان أمراً مستهجناً فالإلزام نابعاً من سلطة عُليا تأمر وتنهى ولا راد لأمرها ونهيها لأنه حق وعدل، وقد اختلف الكثير من الفلاسفة حول طبيعة هذا الإلزام حاول كل منهم رد هذا الإلزام لسلطة ما ويحاول أن يتجنب ما عداها فيرجعها البعض إما لقوة داخلية من مكونات الطبيعة الإنسانية وإما لقوة خارجية تمثل سلطة قوية للضغط الأخلاقي ولكن هذه السلطة الآمرة لا تعني الجبرية، ولما كانت القيمة الأخلاقية للفعل

(١) **د. عبدالقادر البحراوي:** دراسات في فلسفة الأخلاق عند المسلمين، ص١١٩.

(٢) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٠٨.

تتحدد بنتائجها أي بالجزاء الذي يقع على الإنسان عند ممارسته سلوك معين أصبح الجزاء هو مصدر الإلزام.

٢- **الإلزام** معياراً عاماً مطلقاً لأنه مشترك بين الأفراد يخاطب الناس جميعاً في كل زمان ومكان، وليس خاصاً بفرد معين بل يَعُم ويشمل الجميع بكل ألوانهم وجنسياتهم وبدون استثناء.

٣- **الإلزام** وسيلة للعمل وليس غاية في ذاته ومثله مثل القانون يضع لنا القيود ويرسم لنا الحدود التي يجب إتباعها إلا أن هذا القانون قانونا تكويني طبيعي يهيب بالإنسان إلى عمل الخير ومبدأ إلهي عقلي ينذر ويحذر من الانحراف إلى الشر، فإذا ألتزم الإنسان تلقائياً بكل حد وقيد مع غفلته بهذا القانون أصبح الأكمل والأفضل وذلك لأنه قام بوضع الحدود لنفسه من تلقاء نفسه وأما من ينكرون فكرة الإلزام فهم إما يحاولون التحرر من فعل الخير والفضائل وإما يحاولون الإفلات من القيود والحدود رغبة منهم في الانصياع وراء شهواتهم ورغباتهم.

٤- **الإلزام** قانون الحرية من حيث تقوم فكرة الإلزام على كون الإنسان عاقلاً وأنه اختار مبدأً سلوكياً معيناً، وأوجب الإنسان على نفسه فعل هذا السلوك أو عدم فعله من ذاته وبملء حريته وفى تحقيق ذلك ممارسة للحرية، فالإلزام سلوك خلقي ذاتي والإنسان هو مصدر ذلك الإلزام بما يملكه من إرادة. والمسألة إذن مسألة اختيار حر دُنيوي لا عُلوي، يؤدى إلى استخدامنا الحسن أو السيئ لملكاتنا، فالتربية تزكيها والإهمال يُفسدها قال الله (ﷻ): **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** [سورة الشمس: الآية: ٩، ١٠].

٥- **الإلزام** يصدر عن إرادة إنسانية ولا يتصور قيام الأخلاق والمسئولية عن السلوك الأخلاقي دون التسليم بحرية الإرادة يقول (ﷻ): **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً}** [سورة الإنسان: الآية: ٣] وقال (ﷺ): **{بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى**

نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه} [سورة القيامة: الآية: ١٤][(١)]، فعظمة الإنسان الحقيقية تظهر في الفعل الإرادي، الفعل الحر الذي يسمو بصاحبه فوق عالم الأشياء، وهو الذي يفرق بين الإنسان العادي الخاضع لعالم الأشياء وبين القائد والمبدع والبطل، إن الفعل الخلقي الإرادي خروج على نظام الأشياء، أما الغرائز وردود الأفعال فهي نكوص إلى عالم الأشياء، إن الفعل الإرادي أعنى الفعل المنضبط المنظم عقليا بواسطة وعى متزايد الوضوح ؛ هو عنوان وجود الإنسان.

لما كانت أخلاق الإنسان قابلة للتغيير كان لابد من الوقوف على طبيعة هذا الإنسان، ومعرفة ما هي القوى التي باستطاعتها دفع الإنسان إلى الخير له ولجميع من حوله؟ والدراسات الأخلاقية تقوم بهذا الدور فهي التي تساعد الإنسان وتقوى إرادته لفعل الخير وتنشط عزيمته على المضي في سبيل تحقيق الفضيلة، كما أنها تعد خير عوناً له في تقدير الأفعال الأخلاقية من غير أن يخضع هذا التقدير إلى العادات أو الأعراف أو يتأثر بفعل الزمان أو المكان، ومن هنا جاءت أهمية البحوث الأخلاقية.

والظاهرة الخلقية ظاهرة مركبة بل وشديدة التعقيد تدخل فيها وتتداخل عناصر متعددة تبعاً لتعدد مكونات الشخصية، وقد تفرقت وتعددت الآراء في محاولة تفسير مصدر الإلزام الخلقي كلا محاولاً التركيز على أحد الجوانب المكونة للشخصية الإنسانية، وللإلزام أكثر من وجه وأكثر من مصدر يفضى إلى تلك الأوجه يرجعها البعض إلى الإلزام الداخلي من فطرة إنسانية أو ما يسمى بالحاسة الخلقية (الضمير) أو سلطة العقل ويرجعها البعض الآخر إلى الإلزام الخارجي و ذلك بقولهم أن الإلزام نتاج للتجربة والضغط الاجتماعي من

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٠٩، ١١٠.

عادات وأعراف وعقوبات يفرضها القانون الوضعي الذي وضعته الدولة ونفذته الحكومات أو قد يكون الإلزام مصدره سلطة الدين لما يحتويه من أوامر ونواهي لها من التأثير أثراً لا يمكن إغفاله[1].

ويبقى السؤال ما هي القوى التي تستطيع أن تلزمك بفعل أخلاقي؟

أولاً: الإلزام الداخلي:

الجانب الوجداني – "الضمير":

الضمير ملكة التمييز بين الفعل الحسن والفعل القبيح، وهو قبل الفعل يتجلى في صورة المطالب وبعده في صورة المحاسب، وكان القدماء يطلقون عليه اسم القلب.

والضمير هو الشئ الذي يدعوك أو قد يأمرك أن تقول "لا" مع أن كل شئ من حولك يأمرك أن تقول "نعم" ومع أن كلمة "لا" قد تتعارض مع المصلحة أو قد تكلفك خسارةٍ ما، إما حياتك أو مستقبل أولادك أوكل ما تملك من جاه ومال.

والضمير هو الشعور الباطني الذي يدفعنا بل ويلزمنا بإتيان عمل ما يستهدف الفضيلة لذاتها واجتناب عمل آخر دون تبرير قد يؤدى إلى الشر لذلك ويسميه البعض الشعور بالواجب أو الحاسة الخلقية وهو مصدر آخر من مصادر الإلزام.

والضمير إذن قوة فطرية يولد الإنسان مزود بها قد أودعها الله في جسم الإنسان ليميز بها الخير من الشر بلا أقيِّسة ومقدمات فهي نور إلهيّ وحاسة أخلاقية نميز بها ما هو حسن عما هو قبيح والضمير له قوة السلطان على

(١) **د. محمد عبدالرحمن مرحبا:** المرجع في تاريخ الأخلاق، دار جرس برس للنشر، لبنان ١٩٨٨م، ط١. ص ٢٠، ٢٥.

النفس يملى أوامره عليها ويحاسبها فلا يمكن أن يتصور الإنسان أن يعيش بلا ضمير يحاسبه إذا أخطأ، ويلومه إذا أستمر في الخطأ وتمادى في الشر.

والضمير أحكامه عامة ومطلقة لأنها فطرية ليست مكتسبة:

يرجعها البعض إلى الخبرات العاطفية ويرون أن الضمير متأصل في طبائع البشر مركب من الخبرات العاطفية القائمة على أساس فهم الإنسان للمسئولية الأخلاقية لسلوكه في المجتمع وتقدير الفرد الخاص لأفعاله وسلوكه، وهو بذلك يحقق التوازن بصفة مستمرة بين الأثر والإيثار أي بين الخير الذاتي وبين الخير الجماعي، ويرتبط الضمير إرتباطاً وثيقاً بالواجب فإذا أنجز الإنسان واجبه تماماً شعر براحة الضمير والتي لا تدانيها أي راحة(١).

إن الضمير غريزة إلهية وبهذه الغريزة نفرق بين الخير والشر كما نفرق بين الأبيض والأسود، وهو خير دائما وهو الوسيلة الوحيدة للهداية في الطبيعة الإنسانية.

كما أنه يحمل في ثنايا ذاته الباطنية الجزاء الأخلاقي لصاحبها فالضمير صوت منبعث من أعماقنا يأمرنا بعمل الواجب ويحذرنا من المخالفة، فإذا بدأ الإنسان في عمل الواجب شجعه على الاستمرار فيه، فإذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور؛ وبرفعة نفسه وعظمتها وشعر بأنه صافى الضمير وشعر بالسعادة، أما إذا لم ينجز واجبه شعر بوخزات الضمير وعدم الارتياح(٢).

لذلك كان الضمير هو الرقيب على الإنسان في سلوكه الخلقي، فإن علماء الاجتماع يصطدمون بتلك الحقيقة الأولى عن الضمير وأهميته ودوره، ويذهب

---

(١) **د. منصور على رجب:** تأملات في فلسفة الأخلاق، مطبعة مخيمر للنشر، القاهرة ١٩٥٣م، ط١، ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) **د. محمدعبدالرحمن مرحبا:** الموسوعة الفلسفية الشاملة، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، عويدات للنشر والطباعة، بيروت ٢٠٠٧م، ط١، ص ٢٨٢.

بعضهم إلى أن الضمير لا يخرج عن كونه مجموعة من العناصر الاجتماعية المستمدة من صميم بيئتنا فليس الشعور الخلقي – في رأسهم – سوى صدى يتردد في أعماق نفس الفرد لأوامر العقل الجمعي ونواهيه ومعاييره وقيمه ومعنى هذا أن الضمير هو نتيجة لتأثير البيئة والتربية أو التنشئة، وهذا الرأي يحمل في طياته أدلة تناقضه وخطئه، ولترتب على ذلك تماثل كل أفراد المجتمع في ضمائرهم، ثم أن المشاهد أن الأسرة الواحدة وهى وحدة اجتماعية صغيرة، يجمعها وحدة الأصل والنشأة ويسودها نمط واحد من الحياة المشتركة والتربية، ومع ذلك فمن المشاهد أنه يوجد بين أفراد الأسرة الواحدة أشقاء تتباين شخصيتهم وتختلف ضمائرهم فمنهم ذو الخلق والذي لا خلق له وذو الضمير اليقظ ومن ماتت مشاعره(١).

وهناك رأى ثالث ينكر وجود الضمير إنكاراً من أصله فليس هناك – على حد قولهم – شئ اسمه "ضمير" وليس هناك شئ اسمه فضيلة وليست هناك قيم أخلاقية وليست الأخلاق إلا اختراع الضعفاء لكي يقيدوا بها "سلطان الأقوياء" ولذلك ينادون بأن نكون حربا على "الأخلاق".

أما الإسلام لا ينكر وجود الضمير ويقول الله تعالى {**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُون، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونْ**} [سورة الأعراف: الآية: ٢٠١،٢٠٢] {**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهْ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدْ**} [سورة ق: الآية: ١٦].

(١) **د. يعقوب المليجي:** الأخلاق في الإسلام مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية، مؤسسة الثقافة الجامعية للنشر، الأسكندرية ١٩٨٥م، ط١، ص٢٦.

أما عصمة الضمير فهذه مسألة ينكرها الإسلام والأدلة على ذلك ومنها قوله تعالى: {**مَّنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِه وَمَن ضَلّ فَإِنَّمَا يَضِلُ عَلَيِّهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرُةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولَاً**} [سورة الإسراء: الآية ١٥]، وعلى الإنسان أن يهذب ضميره فالضمير يتفاوت بين الناس كما يتفاوت العقل بينهم ودعا الإسلام الإنسان أن يجاهد نفسه الأمارة بالسوء قالي تعالى: {**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَّدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**} [سورة العنكبوت:الآية: ٦٩].

ويترتب على هذا الرأي في "الضمير" إنه لا حاجة لا إلى العلم ولا إلى الفلسفة لكي تكون حكيماً وفاضلاً، لأنك تدرك الخير بفطرتك، أو لأنك تلهم الطيب بإحساس يوحى إليك، فلو كان الضمير معصوماً بطبيعته لأرشد الناس جميعاً إلى طريق الهدى، وجنبهم طريق الضلال(١).

إن القول بفطرية الضمير وتلقائيته وقدرته على التمييز بين الخير والشر تعنى أنه لأفضل للإنسان على نفسه في ممارسة الخير وأن الفضيلة بذلك لا تتطلب عناء وهذا ما ينفيه الواقع فالفضيلة إنكار للذات قد يضحى ويعانى الإنسان كثيرا لتحقيقه.

إن تأسيس الأخلاق على الضمير أو الحاسة الخلقية ورد الإلزام الخلقي إليه وهو مصدر داخلي فردي يؤدي إلى أن تصبح الأحكام الخلقية نسبية متغيرة من فرد إلى آخر، وذلك لأن العاطفة نسبية متغيرة من شخص إلى آخر ومن ثم فهي لا تصلح لتأسيس قانون أخلاقي ثابت عام يتفق عليه جميع البشر.

وأن من الخطأ فصل الدين عن الأخلاق فترغيب الناس بالجنة والترهيب من النار له فاعلية أكبر عن تركهم إلى شعورهم الداخلي.

---

(١) **د. منصور على رجب:** تأملات في فلسفة الأخلاق، ص ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥.

الجانب العقلي – "العقل":

لأن الحياة الأخلاقية لا تقوم دون تأمل وتركيز فقد يرجع الكثير مصدر الإلزام إلى العقل، فالعقل القوى الخالص هو مناط التكليف والهادي إلى التفريق بين الحسن والقبيح والميزة الكبرى للإنسان عما سواه من المخلوقات أنه يؤثر ولا يتأثر، فهو يؤثر حيث يرشد الإنسان إلى الأخلاق الحميدة السليمة واجتناب الرذائل، ولا يتأثر بعادات وتقاليد المجتمع من خرافات أو غيبيات غير إيمانية خاطئة، بل على العقل حينئذ أن يؤثر في المجتمع ويقوده لما هو صواب.

ففي الإنسان إذاً قوة كامنة لا تقتصر على نصحه وإرشاده وإنما توجه إليه بالمعنى الصحيح أوامر بأن يفعل أو لا يفعل ذلك هي قوة العقل، أنها تحدد له ما يجب عمله، وما يجب تحاشيه، هذه السلطة الكامنة التي تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا السفلى هي أسمى جزء من نفوسنا هي العقل، فخارج ما يأمر به العقل لا تكون هناك قاعدة أو سلوك له ما يبرره، وقد أشعرنا الله بفضل العقل هذا وبما يسيغه على الإنسان من الكرامة الإنسانية حيث قال في كتابه العزيز **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}** [سورة الإسراء: الآية: ٧٠][1].

وعقل الإنسان يجعله يفكر في أنه من مصلحته المباشرة أن يلتزم المبادئ لتحقيق الخير له وللآخرين، ويأمره كذلك بعدم مخالفتها وقد قال الرسول الكريم (ﷺ) في قوله "إذا أراد الله بعبدٍ خيراً، جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه".

وإذا كان الأمر كذلك، ألا يمكن استنتاج أن الإنسان في غياب أية تعاليم وضعية، يملك الوسائل اللازمة – الذهنية منها والشعورية – التي تمكنه من

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص ٧١، ٧٢.

التمييز بين ما يجب فعله وما يجب تجنبه[1]، فكل شئ حولنا يسير وفق قوانين محددة تتفق مع طبيعة الأشياء وبما أن طبيعة الإنسان العقل فيجب أن يسير على ما يفرضه العقل من قوانين استطاع أن يتوصل إليها ويمليها على المجتمع وبذلك تكون قوة العقل أقوى من قوة المجتمع ويكون القانون الخلقي هو نفسه القانون العقلي عند الإنسان.

وبالعقل تكون الأخلاق، وذلك لحاجة الأخلاق إلى أسس عقلية موضوعية لا تتغير بتغير الظروف والأحوال، تستمد قوانينها ومبادئها من ذاته لأنها حينئذ لا تكون قد قامت على إلهاما أعمى اعتمد على أساس وجداني أو حسي متغير بل قامت على أساس عام ومطلق لكونه نابع من العقل.

والعقل بذلك لا يستطيع أن يكون مصدراً للإلزام إلا إذا حكم وساد وسيطر على المجتمع من الخرافة والغيبيات غير الإيمانية، فبالعقل يسمو الإنسان ويتميز وتكمن فيه الإرادة الإنسانية التي يمتلك بها الإنسان التغير لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك الإرادة وتغير ما حوله، وذلك بما أودعه الله فيه من العقل وهو بذلك يحقق إلزاما أخلاقياً.

وبينما يرى أصحاب الاتجاه العقلي أن الأخلاق لا يمكن أن تستمد من العاطفة لأنها حينئذ ستكون نسبية متغيرة، يرى أصحاب الاتجاه الوجداني بالرغم من ذلك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكل شئ علما، نعم يستطيع العقل أن ينتقل من المعلوم إلى المجهول أي من المقدمات إلى النتائج، ونعم يستطيع أيضاً أن يدرك تلقائياً أشياء معنوية كقبح الظلم وحسن العدل ونحو ذلك من ظواهر إنسانية وفضائل أخلاقية فالعقل هو الهادي لنا نحو الاتجاه إلى النافع والبعد عن الضار؛ ولكن العقل بمفرده ليس كافياً أن يحقق استحساناً أخلاقياً أولوماً.

---

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق فى القرآن، ص ١٠.

وذلك فيما يرى أصحاب النزعة الوجدانية أن الأخلاق مصدرها العاطفة والحكم الخلقي قائم على الذوق أو العاطفة، وليس للعقل أن يتجاوز طبيعته الخاصة وهى الطبيعة النظرية والتي بها وحدها لا تستطيع أن تحرك الإنسان إلى اتخاذ سلوك معين والابتعاد عن آخر فالمعرفة النظرية وحدها لا تكفى لتحريك سلوك أو أن يترتب عليها عمل(١). كما يرون أيضاً أن العواطف والخوف من الله من الأمور ذات التأثير القوي على السلوك والتي لا يمكن استبعادها والاستغناء عنها إكتفاءاً بقوة العقل وبذلك قد ابتعدت دعوة أصحاب المذهب العقلي عن واقع الحياة العملية عندما عزلت العواطف عن الإلزام الخلقي ونظرت للإنسان نظرة عقلية محضة.

الجانب الجسمي (المنفعة):

ويرى أصحابه أن الناس ينبغي أن ينشدوا على الدوام لذتهم، فاللذة وحدها هي الخير في ذاته، ولا شئ سواها يحمل في ذاته قيمته، وعلى عكسها يحمل الألم أو الشعور الأليم قيمة سلبية قصوى، فهو وحده الشر في ذاته(٢).

ولعل أيسر تعريف للذة هو ما ذهب إليه الدكتور توفيق الطويل: أنها وجدان يصاحب إشباع الرغبات الشخصية.

كما يرون أن اللذة هي الخير الأقصى أخلاقياً وذلك لأن هدف الأخلاق هي تحقيق السعادة التي يسعى الإنسان دائماً إلى البحث عنها وتحقيقها وبذلك أصبحت المنفعة من وجهة نظرهم هى كل ما يحقق للإنسان أكبر قدر من

---

(١) **د. محمد عبد الحفيظ:** دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، بدون ناشر وتاريخ، ص ١٥ بتصرف.

(٢) **د. توفيق الطويل:** مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٣م، ط١، ص ٢٢.

المتعة واللذة، فالمتعة هي أساس القيمة الأخلاقية وهى بذلك الخير الأقصى أخلاقياً.

ويقول المذهب النفعي في الأخلاق الذي يرى أن السعادة هي الخير، وأن أساس السلوك إذن ينبغي أن يكون ما ترجح به كفة السعادة في هذه الدنيا، فإن أردنا الحكم على فعل ما بالخير أو بالشر فلنسأل أولا، ما نتائجه من حيث تحقيق السعادة لبنى الإنسان في هذه الحياة الدنيا(١)، وأن الإنسان بفطرته أناني يسعى لتحقيق الخير لنفسه ويظل باحثاً عن الأفعال التي تحقق سعادته الخاصة ولذاته الشخصية والتي يكون جزاؤها تحقيق أكبر المنافع له حتى وإن تعارضت مع الآخرين، كما أنه يبتعد عن الأفعال التي يكون جزاؤها عقاباً.

وهم بذلك لا يرون أن مبدأ الحكم على الفعل بخير أو بشر ليس ما سبق الفعل من إلزام صدر من أمر أو عاطفة بل يرون أن أساس الحكم الخلاقي هو ما يلحق الفعل من نتائج أن مصدر الإلزام الخلقي عندهم يرتد إلى جزاءات الأفعال والتي ترتد بدورها إلى مدى ما تحققه من اللذة والمنفعة.

وعلى هذا يمكن إجمال خصائص هذا المذهب في الآتي:

أن اللذة تبقي ما بقى الفعل الذي أدى إليها، ولا يشعر بها إلا صاحبها، وهى ليست إلغاءً تاماً للألم وإن كان هذا ممكنا، بل إن الأخلاقية تقوم في الصراع بين الواجب والهوى، وتمس الحاجة إلى التضحية باللذات الشخصية فينشأ الألم(٢).

فأهمل النفعيون دور الدين وضوابط المجتمع وهم بذلك هدموا المثل الأخلاقية وقضوا على فكرة الواجب.

---

(١) **د. مصطفى غلاب:** برتراند رسل، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٧٩ ص ١٢٨.

(٢) **د. توفيق الطويل:** مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق ، ص ٣٤.

لذلك لا تصلح اللذة مصدراً للإلزام الخلقي لأنها تعتمد على الجانب الجسمي الذي يشترك فيه كل من الإنسان والحيوان والأخلاق خاصة بالإنسان ومرتبطة به دون غيره من الكائنات، وأن اللذة منها ما يكون متعة لإنسان قد تسبب لغيره ألماً فهى بذلك نسبية متغيرة لا تصلح أساساً تقوم عليه الأخلاق.

ثانياً: الإلزام الخارجي:

إن بعض الناس قد يلغون عقولهم وضمائرهم وبالرغم من ذلك قد نجد هؤلاء يفعلون الفعل الأخلاقي ويلتزمون بالقواعد والآداب المتفق عليها فنتسأل كيف يحدث هذا بالرغم من كونهم على هذا النحو؟ والإجابة إنه لابد من وجود وازع آخر قد يكون أعظم في نفوسهم من إعمال عقولهم أو مخافة ضمائرهم يمكن عن طريقه ردعهم ألا وهو الإلزام الخارجي المتمثل في سلطة المجتمع أو سلطة القانون الوضعي.

الجانب الإجتماعي – "المجتمع":

إن الدعوة الأخلاقية ارتبطت بالإنسان وجوداً وعدماً، فهي قديمة قدم وجود المجتمعات الإنسانية، فالقيم الأساسية والفضائل الأخلاقية كالواجب والتعاون واحترام الآخرين ليست فطرية ولا تنشأ من فراغ وإنما هي ثمار تظهر نتيجة اجتماع الناس بعضهم ببعض سواء أكان داخل أسرة أو مدرسة أو عمل داخل مجتمع ومن ثم تبدأ الحياة الأخلاقية حين تبدأ الحياة الاجتماعية.

والإنسان بطبيعته كائن اجتماعي أدرك أنه ليس من الحكمة في شئ أن يتعدى على جزء من أجزاء الجماعة فهو في حاجة إلى هذا المجتمع الإنساني ومن ناحية أخرى أدرك أن عليه التزامات تجاه هذا المجتمع وكان هذا التفكير بداية وجود الأخلاق والقيم الأساسية، والفضائل الأخلاقية ليست فطرية بل مكتسبة ولا تظهر بمعزل عن الجماعة فما اجتمع أناسُ في أي زمان أو مكان إلا واتفقوا فيما بينهم على قواعد للتمييز بين الخير والشر والحق والباطل، وما

يجب وما لا يجب فعله أو اتباعه، وهذه القواعد وما تنطوي عليه من قيم تعد مصدراً خارجياً للإلزام الخلقي.

ولما كانت هذه القواعد مصدراً للإلزام فلا يمكن مخالفتها، فإذا سار الإنسان طبقا لهذه لقواعد المتفق عليها شعر بالراحة والطمأنينة والعرفان ممن حوله، أما إذا خالفها شعر بالندم وبالإستهجان من الجميع وربما شعر بالفزع الشديد الذي قد يودى بحياته، فالشعور الخلقي شعور طاغٍ يطبق على أفراد المجتمع ويوجب على صاحبه القيام بفعل ما والامتناع عن آخر طبقا لما ارتضته الجماعة(١).

والمجتمع لا يخلو أبداً – راقياً كان أو بدائياً – من عادات خلقية وتقاليد تفرض نفسها وإلزامات ومحرمات هي فلسفة الأخلاق، فإن أحد العوامل الرئيسية في وجود المجتمع – أي مجتمع – واستمراره هو أن يوجد تشابه أخلاقي كافٍ بين أعضاء هذا المجتمع، فمن الضروري أن يشعر هؤلاء بالنفور به ومن أفعال خاصة وبالإحترام نفسه لأفعال وأفكار خاصة أخرى، وأن يشعر بنفس الواجب الذي يدعوهم إلى اتخاذ سلوك معين في ظروف معينه وهذه هي إحدى الدلالات الجوهرية للقاعدة الأخلاقية التي تقول: "ارغب في هذا ولا ترغب في ذاك" ومن هنا نشأت الأخلاق وهنا تكمن بذورها، ولعل الأصح أن نقول أن الأخلاق نشأت من فكرة التحريم أو النهى أكثر منها من فكرة الأمر.

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين، فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية، فلو لم أعدل في حق الآخرين فإنه لا يجوز لي أن أنتظر منهم أن يعدلوا في حقي.

(١) **د. محمد عبدالرحمن مرحبا:** المرجع فى تاريخ الأخلاق، ص ١١٠،١١١.

فالحكم الأخلاقي على السلوك الإنساني كان يرتد منذ فجر الحضارة الإنسانية – فيما يقول سيكولوجيا الشعوب – إلى المعتقد الديني والعرف الاجتماعي، أي إلى سلطة تقوم خارج الذات، أما رد الأحكام الخلقية على الأفعال الإنسانية إلى مبادئ عامة تصدق في كل زمان ومكان جاء أخيراً على يد سقراط(١).

فالسلوك الإنساني ليس سلوكاً عشوائياً ولكنه سلوك إرادي منظم، فقد ينقاد الإنسان وراء إحدى نزواته تاركاً لرغباته العنان ولكن فجأة يتوقف عن هذا السلوك اللاأخلاقي، ويرى أنه يجب أن يسلك سلوكاً أخلاقياً، فالذي يجب في علم الأخلاق هو ما يسمى بالإلزام الخلقي، وقد يقع في ظن الإنسان من الوهلة الأولى أنه حر، وعلى أنه قادر أن يفعل ما يشاء، وبوسعه أن يحقق رغباته، وأن يفعل كل ما تصبو إليه نفسه من نزواته، ولا يفكر إلا في ذاته، ويسقط من حساباته كل ما يوجد حوله من أفراد داخل المجتمع الذي يحيا في كنفه، وبمجرد أن تهم إرادته فى تحقيق ما يريد من رغبات، يجد قوة معاكسة تقف في وجهه بقوة وعزم، تلك القوة تتكون من القوى الاجتماعية، وهى على النقيض تماماً من الدوافع الفردية التي توسوس للإنسان أن يفعل ما يريد(٢) وتتحدد أخلاقيات الفرد وفقا للمبادئ السائدة في المجتمع وتنبثق القيم الأخلاقية من المجتمع لكي تجبر الأفراد وتلزمهم على إتباع سلوك أخلاقي معين ويستعين المجتمع في تحقيق هذا الإلزام بعدة طرق ليس ثمة ضغط اجتماعي وأخلاقي على الفرد يلزمه لمراعاة قواعد أخلاقية خاصة؟ ألا يستعين المجتمع في تنفيذ هذه القواعد بدروب من الجزاءات المادية والأخلاقية حتى يضمن تحقيق هذا الإلزام(٣).

---

(١) **د. توفيق الطويل:** مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق، ص ٤٦،٤٧.

(٢) **د. محمد عبدالحفيظ:** دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص ٣٢.

(٣) **د. إمام عبد الفتاح إمـــام:** الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٦٣.

وقد قامت القوانين منذ قيام المجتمعات الإنسانية وعرفت الخضوع للنظام الإجتماعي وقد تضمنت هذه القوانين عدة قواعد عامة تطبقها الهيئة الحاكمة التى بيدها السلطة وتملك توقيع الجزاء على من يخرج عليها، والغاية من وضع القوانين هى تنظيم العلاقات المختلفة بين أفراد المجتمع بما يحفظ مصلحته ومصلحة أفراده ويحافظ على الاستقرار والنظام فيه كما أن الثواب والعقاب في المجتمع أحد أساليب الضبط المختلفة في مصدر الإلزام الخلقي، وهذا الإلزام النابع من المجتمع يمثل قوة قهرية للأفراد تحمل وسائل عقاب الخارج عنها كالاستهجان والعقاب المادي والمعنوي كما تحمل وسائل تقدير للمنصاع لها كالإحترام والتقدير المادي والمعنوي، ومن هنا يبرز دور المجتمع كقوة إلزامية أخلاقية بل إن هذه الإلزامات هي التي تمكنه من البقاء وتحقق له الاستمرارية(١).

والاجتماعيون هم القائلون بأن مصدر الإلزام الخلقي يرجع إلى سُلطة المجتمع أو أثر الجماعة (تبدأ الحياة الأخلاقية حين تبدأ الحياة الاجتماعية) معللين بذلك أن الحياة الاجتماعية هي نفسها سبب وجود القواعد الأخلاقية فلو عاش الإنسان منعزلاً وحيداً لما ظهرت المبادئ الأخلاقية، فالأخلاق لا تظهر عند الفرد المنعزل وإنما تظهر في ظل الجماعة وتنشأ طبقا لظروف المجتمع، وقوة المجتمع عندهم فيما يرون تعد أقوى من قوة العقل.

إلّا أن من عيوب هذا الرأي أنه يجعل الإنسان دمية والمتحكم الأوحد فيها هم الجماعة حيث يفنى الفرد في المجتمع، وما الضمير الفردي إلا ضميراً يحمل داخله ضمير الجماعة ويصبح السلوك الأخلاقي مجرد انعكاسات لرغبات الجماعة أما وقد نهانا الرسول الكريم (ﷺ) على أن لا يكن أحدنا أمعة يقول إن

(١) **د. عبدالقادر البحراوي:** دراسات في فلسفة الأخلاق عند المسلمين ، ص١٤.

أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسئت ولكن نوطن أنفسنا إن أحسن الناس أن نحسن وإن أساءوا أن نتجنب إساءتهم.

إلّا أن وجود الضمير الجمعي لا يمنع من وجود وظهور الضمير الفردي الذي يستطيع في أي وقت من الأوقات أن يختلف عن الضمير الجمعي ويؤثر في المجتمع ويغير من طبيعته ويتحكم فى ظروفه رافضاً الانقياد كما فعل الآخرين ومن أمثلتهم الزعماء والعلماء والمصلحين.

إن القول بنسبية الأخلاق هنا يؤدى إلى تفكك البناء الأخلاقي للإنسانية عامة حيث تتحطم المعايير وتظهر الأخلاق الجزئية المتغيرة بتغيير المواقف الاجتماعية وحينئذ لا نستطيع التمييز بين ما هو أخلاقي ولا أخلاقي.

فالمجتمع الذي يلزم الأفراد بإتباع القوانين الخلقية كإحترام حقوق الآخرين هو نفس المجتمع في أيام الحروب حين تصبح أخلاق الخيانة والكذب والعدوان أمورا مبررة بل ومشرفة؟! وتتنحى حينئذ الواجبات المقررة نحو الإنسانية عامة جانباً بحجة أن الظروف تحول دون تحقيق هذه الواجبات، ويترتب على ذلك القول بنسبية الأخلاق، فالأخلاق تختلف من مجتمع إلى آخر بحسب اختلاف ظروف هذه المجتمعات، فالفضيلة في مجتمع قد تكون رذيلة في مجتمع آخر، وبل قد تختلف الأخلاق في المجتمع الواحد من عصر إلى عصر آخر، فالسلوك الشرير في وقت من الأوقات قد يكون سلوكاً خيرياً في وقت غيره، فإن رد الإلزام الخلقي إلى المجتمع وحده قد يؤدى إلى تغافل دور الدين باعتباره مصدراً إلهياً.

وعلى الرغم من ذلك لا يمكننا التقليل من تأثير المجتمع على أفراده وإنما نقول ليس بالمجتمع وحده ما يصوغ الإنسان بنائه الأخلاقي بل هناك عوامل أخرى متشابكة ومتداخلة كل منهم تبنى جزءاً فى صرح الإنسان الأخلاقي.

الجانب الروحي – "الدين":

غال الاجتماعيون في رد الإلزام الخلقي إلى المجتمع فحسب واعتبارهم أن الأخلاق ما هي إلا ظواهر اجتماعية ترجع إلى المجتمع، وهم بذلك قد تجاهلوا جانباً أساسياً وهاماً من مصادر الإلزام الخلقي لا يمكننا غض الطرف عنه بل أنه قد يعد من أهم وأعمق المصادر تأثيراً على الأفراد، وهذا المصدر يتمثل في سلطة الدين، فالدين بما يتضمنه من أوامر ونواهي يعد مصدرا للإلزام الخلقي لا يمكن إغفاله أو التقليل من قيمته في تحديد المبادئ والقيم الأخلاقية الصحيحة.

ولا نعنى هنا بالدين ما جاءت به الأديان السماوية من شرائع وعبادات، بل ما نعنيه هي المعتقدات والديانات الوضعية، وما نعنيه هو التعريف المعياري للدين ذلك لأنه يحاول الإشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه الدين في أحسن أحواله، وإن كان بدون الإشارة إلى إدعاءات الوحي أو الإلهام لبعض العقائد الدينية [١] بالمعنى المعياري الصحيح سواء كان أرضياً وضعياً أو إلهياً سماوياً يدل الإنسان على الخير والأخلاق الحميدة وهو إنقياد وإلتزام بأشياء مفروضة من سلطة عليا، وهو العلاج الشافي لأمراض النفس لأنه الطريق الوحيد إلى القلب والعقل معا ويفرض الدين لأتباعه خريطة من الفروض والمستحبات والمباحات والمكروهات والمحرمات وهو بمثابة القوة الإلزامية التي يجب على الجميع من المؤمنين إتباعها وعدم مخالفتها بذلك يستمد الدين قوته الإلزامية من الثواب والعقاب الذي يفرضهما سواء في الدنيا أو الآخرة وقد ساعدت قوة الدين مدى العصور والأزمنة على مواجهة قوى الظلم والاستبداد ومنذ أن وجد

(١) **د. محمد عبد الحفيظ:** الفلسفة والاعتقاد الديني "وليم جيمس نموذجا "، بدون ناشر وتاريخ طبعة ، ص ٤.

الإنسان وعبر العصور المختلفة اعتنقت الإنسانية أدياناً متعددة، وملامحه الخاصة التي يقف الإنسان عاجزاً عن تقديم تفسير لتلك السمة التي تميز الدين ألا وهى القدسية التي تتجاوز الزمان والمكان(١).

إن للدين أهمية خاصة وقدرة مميزة، وتأثير تجاوز كل تصور ويرجع ذلك إلى طبيعته الخاصة وفى هذا يذهب إميل بوترو إلى أن "الدين قد وحد الناس وفرق بينهم وأقام الدول وأسقطها وآثار أفظع الحروب، وعارض بالعقل قوة المادة الهائلة باعتبار أنها عقبة لا يمكن تجاوزها، ولقد أثار في ضمير الفرد ألواناً من الصراع تشبه في مأساتها الحروب بين الدول، لقد واجه الطبيعة وأخضعها، وجعل الإنسان سعيداً في البؤس، بائساً في السعادة، فمن أين جاء للدين هذا السلطان الغريب إذا لم يكن الإيمان أقوى من المعرفة، وكان الاعتقاد بأن الله معنا أشد أثراً من أي معونة إنسانية، وأن الحب أقوى من جميع البراهين"(٢).

مصادر الإلزام الخلقي في الإسلام:

من المتعارف عليه أن هناك أصالة في الفكر الأخلاقي الإسلامي، تنضوي تحتها بالتأكيد أصالة في الأخلاق، ولعلي لا أصادر على ما يمكن إثباته تفصيلاً إذا قلت أن النظرية الأخلاقية الإسلامية تتجاوز بأصالتها سمواً غيرها من النظريات الأخلاقية الأخرى.

---

(١) **د. محمد عبد الحفيظ:** دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص ١٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٩، نقلا عن اميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، تحقيق وترجمة: د. احمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ط١، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

فلا يوجد عمل يوجه إليه الإسلام لا يتصف بالصفة الخُلُقية، فالواجب والخير وغيرهما يقومان على فكرة القيمة الخُلُقية التي تستمد من مثل أعلى، وفي الأخلاق الإسلامية فإن الوحي والعقل يعتبران المصدر الأساسي للإلزام الخُلُقي، جنباً إلى جنب باعتبارهما مستويين للمصدر الخُلُقي، وعلى هذا فيمكن التعبير عن ذلك بالمصدر الفطري والمصدر الموصي به.

يقول البعض: يسير العقل والنقل في القرآن الكريم جنباً إلى جنب وهو ما يفهم من قوله تعالى: {**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**}[سورة الملك:الآية: ١٠]، وفي قلب المؤمن يستقر نوران، على حين لا يجد الملحد سوى نور واحد – إن كان ثمة نور – وهذا هو معنى رمز النور المزدوج في قوله تعالى: {نُورٌ عَلَى نُورٍ}[سورة النور: الآية ٢٥]، وهل معنى ذلك أنه ينبغي علينا أن نفرق بين مصدرين مختلفين للإلزام الخلقي؟ بالتأكيد لا، فنحن لا نراهما إلا مستويين لمصدر واحد(١).

وإذا كان النوران الفطري والموحي ينبثقان من مصدر واحد فحسب، فيجب أن نخرج أخيراً بأن الله (ﷻ) هو الذي يهدينا دائماً إلى واجبنا، ما ظهر منه وما بطن، فليس في الإسلام إذاً سوى سلطة تشريعية واحدة، أو مصدر إلزامي واحد بالمعنى الصحيح(٢).

وعلى هذا تكون مصادر الإلزام الخُلُقي كما يلي:

المصدر الأول: القرآن الكريم (كلام الله):

هو أول مصادر الإلزام الخُلُقي "يحتوي على النسق القيمي الإسلامي بتفصيلاته وتعريفاته المتعددة وهو الدستور الذي يجب أن نستند إليه في اشتقاق

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص٣٤.

(٢) **د. محمد أحمد عبدالقادر:** من قضايا الأخلاق في الفكر الإسلامي، ص١٤١.

القيم، فكل آية نصت على أمر فإن ما تضمنته يعتبر إلزام وكل آية نصت على نهي فإن ما تضمنته يعتبر قيمة سالبة والقرآن الكريم هو كتاب الله الذي نزل على نبي الله، كما أنه دستور للناس يهتدون بهداه، لكونه يحتوي على النسق القيمي الإسلامي بكافة أبعاده ومنهج الحياة المتكامل وهو المصدر الأول للإلزام الخُلُقي وجامع لكل ما تحتاج إليه البشرية من موعظة لإصلاح أعمالهم وأخلاقهم كما تصلح من خلاله خبايا النفس والهداية للصراط المستقيم الذي ينتهي إلي السعادة في الدنيا والآخرة.

المصدر الثاني: السُّنَّة النبوية المطهرة:

والسُّنَّة النبوية هي: "ما صدر عن رسول الله (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير" فهي بهذا سنة قولية، وسنة فعلية، وسنة تقريرية(١).

وهي مكملة للكتاب وشارحة له، وقد أجمع المسلمون على مر العصور على أن ما صدر عن رسول الله (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير، ونقل إلينا بسند صحيح يفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه يكون حجة على المسلمين، ومصدراً تشريعياً يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين، أي أن الأحكام الواردة في هذه السنن هي أصل في الاستنباط قائم بذاته ولها نفس السلطة الأخلاقية للنص القرآني وتكون من الأحكام الواردة فى القرآن قانوناً واجب الإتباع(٢).

---

(١) **الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري:** الحاوي الكبير، تحقيق: على معوض – عادل عبدالموجود، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت ١٩٩٤م، ط١، جـ١، ص٢٩.

(٢) **د. عبدالوهاب خلاف:** علم أصول الفقه، دار القلم للنشر، بيروت ١٩٨٦م، ط١٠، ص٣٧.

المصدر الثالث: الإجماع:

وهو: "اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول (ﷺ) على حكم شرعي في واقعه"(١).

ومعنى الاتفاق: "الاشتراك إما في القول أو في الفعل أو الاعتقاد، والمقصود بأهل الحل والعقد المجتهدون في الأحكام، وإذا أجمعوا على فعل نحو أكلهم طعاماً دل إجماعهم على إباحته، كما يدل أكله (ﷺ) على الإباحة، ما لم تقم قرينة دالة على الندب أو الوجوب"(٢).

ودور الإجماع هو صميم مشكلة جديدة، ذات طابع أخلاقي أو فقهي، أو عبادي، أما الحياة المادية فليس له النظر فيها، وشرط الإجماع أن يكون كل عضو مدركاً لاستقلاله الأدبي ولمسئوليته الأخلاقية، وأن يعبر عن رأيه في حرية، بعد تأمل ناضج في المشكلة المعروضة ولا أحد يمكن أن يكون مجتهداً في هذه الجماعة إلا إذا كان له حق الاجتهاد، أما من له هذا الحق فهم أولئك الذين توفرت فيهم الشروط التي نص عليها العلماء في هذا الشأن، وقد كان الشافعي (رحمه الله) من أسبق من جمع الأدلة التي له القياس بها، وهي العلم بأحكام كتاب الله، فرضه وأدبه، وناسخة ومنسوخة، وعامه وخاصة، وإرشاده، ويستدل على ما احتاج التأويل منه بسنن رسول الله (ﷺ)، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين، فإن لم يكن إجماع فبالقياس، ولا يكون أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى فيه من السنة وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب،

---

(١) **الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري:** الحاوي الكبير، تحقيق: على معوض – عادل عبدالموجود، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت ١٩٩٤م، ط١، جـ١، ، ص٤٥.

(٢) **د. يوسف حامد العالم:** المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م، ط١، ص٦١.

وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما قال، وترك ما يترك، فأما من تم عقله ولم يكن عالماً بما وصفنا فلا يجوز أن يقول بقياس، ومن كان عالماً بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة فليس له أيضاً أن يقول بقياس، لأنه قد يذهب عنه عقل المعاني(١).

المصدر الرابع: القياس:

من المتعارف عليه إن مصطلح القياس لم يرد في القرآن الكريم ولا في حديث صحيح ثابت عن النبي (ﷺ) بل يرى البعض أنه لم يرد كذلك في أقوال الصحابة أيضا، فمعرفة معناه بالرجوع إلى أهل الاختصاص.

القياس لغة: القياس مشتق من قاسه بغيره وعلى غيره يقيسه وقياسا واقتاسه: قدّره على مثاله، ويقوسه قوسًا وقياسا لغة في (يقيسه) والمقدار مقياس، وقِيسُ رمحٍ بالكسر وقاسُه: أي قدره، وقايسته: إذا جاريته في القياس، وقايست بين الأمرين مقايسة وقياسًا أي قدرت، واقتاس الشيء بغيره: أي قاسه به، وهو يقتاس بأبيه أي يسلك سبيله ويقتدي به(٢).

يفترض القياس وجود حالة نقيس عليها، تمثل بها الحالة الجديدة، وعلى ذلك فالحالة الأصلية ينبغي أن يكون قد سبق لها ذكر في القرآن أو في السنة، أو في الإجماع، ولذا يعرف بأنه: "إثبات حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت"(٣).

---

(١) **الإمام محمد بن إدريس الشافعي:** الرسالة، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار الحلبي للنشر، القاهرة ١٩٤٠م، ط١، ص١٠٩، ١١٠.

(٢) **ابن منظور محمد بن مكرم:** لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ج ١١ / ٣٤٦.

(٣) **د. نادية محمد العمري:** القياس في التشريع الإسلامي، دار هجر، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ط١، ص٥٣.

وللقياس حجيته، ولهذه الحجية أدلتها من القرآن، والسنة، والإجماع، ومهما قيل في أمر القياس فإننا لا نجد وراء جهود الفقهاء إلا التوصل إلى المنبع الوحيد الذي يستقي منه الناس جميعاً هو حكم الله وهو الحكم الذي أثبته القرآن ثم الحديث، فالإجماع، فالقياس، فالله (ﷻ) هو إذاً المشرع، وليس الآخرون سوى مقررين لأمره وحكمه، بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة[١].

وعموم القول هنا: أن الإلزام الخلقي في الإسلام يستند إلى ما قرره الإسلام عن طبيعة الإنسان من حيث كونه حراً مختاراً وهدى إلى طريق الفضيلة والرذيلة، ففي الإنسان من حيث كونه فاعلاً، عنصراً أخلاقياً بالمعنى الحق، وفي الأمر الخلقي عنصر آخر هو العقل والحرية، والمشروعية، وتلك هي العوامل الأساسية في الالتزام الخلقي، ولذا كان القرآن يقف موقفاً مدافعاً أمام عدوين خطيرين للأخلاق الإسلامية؛ أولهما: الهوى دون تفكير، والثاني: الانقياد الأعمى دون تمييز.

إذاً فالالتزام الخلقي يقوم على مصدرين أساسين؛ أولهما: النور الفطري، والثاني: النور الشرعي، والأمر اختيار حر دنيوي ليس مفروضاً علوياً، ويرجع استخدامنا الحسن أو السيئ لملكاتنا وقدراتنا، وهي ملكات يزكي تثقيفها النفس، كما يدسها ويطمسها إهمالها[٢].

---

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص٥٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٩.

المبحث الثالث
المسئولية والجزاء الأخلاقي

المسئولية الأخلاقية:

إن المسئولية بمعناها العام تعني إقرار الفرد بما يصدر عنه من أفعال واستعداده لتحمل نتائج هذه الأفعال، فهي القدرة على أن يلزم الفرد نفسه أولاً، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزاماته بواسطة جهوده الخاصة وبإرادته الحرة، وتقوم المسئولية على الحرية، ولا يكلف بها مجنون، وتسقط عن صاحب الإرادة المسلوبة(١).

وعرّف البعض المسئولية بأنها: "هي إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال واستعداده لتحمل نتائج التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله وأمام ضميره وأمام المجتمع"، ومن مميزات المسئولية الشمول لكل الناس والأعمال، وأنها تقوم على الحرية، وتفترض العقل السليم، وتقوم على المعرفة(٢).

أنواع المسئولية:

هناك عدة أنواع من المسئولية:

أولا: المسئولية الأخلاقية:

تعني مراعاة مكارم الأخلاق مع الناس وأقلها طلاقة الوجه والكلمة الطيبة.

---

(١) **د. محمد عقله:** النظام الأخلاقي في الإسلام، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان- الأردن ١٩٨٦، ط١، ص ١١١ وما بعدها.

(٢) **د. حصة أحمد الغزالي:** المسئولية والجزاء في الكتاب والسُّنَّة، حولية كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد السابع عشر (٢٠٠٠)، المجلد الثاني، ص ٤٧٧.

ثانيا: المسئولية الدينية:

وتعني حدود الله، أوامره ونواهيه، أداء الواجبات والبعد عن المحرمات، وهي مسئولية واجبة.

والمسئولية الدينية ميزان السلوك الإنساني، فحين يكون الدافع داخلي، وهو ما نسميه الإخلاص ومراقبة الله وتقواه، يكون تحمل المسئولية في أرقي صورها، وقد حرص الإسلام على أن يكون أبناءه على هذه الصورة الراقية.

وفي تعاليم الإسلام وتوجيهاته الكثير من المبادئ الداعية إلي الإحساس بالمسئولية نحو الشخص والمجتمع بل والكون بأكمله وتشير الكثير من الآيات والأحاديث إلى ضرورة نهوض الأفراد بمسئولياتهم تجاه مختلف جوانب الحياة، قال تعالى: **{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسئُولُون}** [سورة الصافات: آية: ٢٤].

وعن عبدالله بن عمر (ﷺ) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: ألا كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع عن أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية عن أهل بيت زوجها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع عن مال سيده، وهو مسئول عنه، ألا كلكم مسئول عن رعيته(١).

ثالثا: المسئولية القانونية:

والتي تعني مراعاة القانون والبعد عما يجرمه.

رابعا: المسئولية الاجتماعية:

وتعني مراعاة حقوق الآخرين والمحافظة عليها وعدم الإضرار بها، بما في ذلك إزالة الشوكة من الطريق، وحقوق الجار وحقوق الوالدين والأقارب والأرحام.

---

(١) **الإمام مسلم:** صحيح مسلم، دار طيبة للنشر، الرياض ٢٠٠٦م، ط١، ج١، كتاب الأمارة، باب فضيلة الإمام العادل، حديث رقم ١٨٢٩، ص٨٨٦.

كما يرتبط مفهوم المسئولية ويتداخل مع عدد من المفاهيم منها: الحقوق والواجبات، والهوية والمواطنة، الأخلاق والقيم، والإدراك الاجتماعي، والضمير الفردي والاجتماعي، ويمكن الافتراض أن المسئولية الاجتماعية مرتبطة بالنمو الأخلاقي والثقة بالنفس والوعي الاجتماعي والإحساس بالهوية الاجتماعية، وبالتعليم والوعي وبإدراك هدف الإنسان من الحياة.

وخلاصة القول: أن كل مسئولية تفترض الإلزام سلفاً ويتبعه الجزاء، وقد رأينا أن الإنسان مكلف، والأخلاق الإسلامية قائمة على التكليف، وهذا يعني أن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التي تلزم الإنسان بالعمل الخلقي.

شروط المسئولية الأخلاقية في الإسلام:

ذكرنا فيما سبق بأن الأخلاق في الإسلام تقوم على أساس من التكليف، وذكرنا أن الإنسان لكي يكون مكلفاً لابد وأن يكون حراً، وأن تكون لديه الإمكانيات اللازمة للقيام بمهام التكليف، ومع ذلك سنعرض هنا وفي إيجاز شروط المسئولية الأخلاقية مستنبطة من الآيات القرآنية:

١- **الطابع الشخصي للمسئولية:** فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عما يصدر عنه من أفعال، وعلى ذلك يأتي الثواب والعقاب، فمسئولية كل فرد واضحة جلية عن العمل الذي يقوم به سواء كان هذا العمل من أجل نفسه أو من أجل غيره، فإن كان لا يتحمل تبعة عمل إنسان غيره، فإنه يكون مسئولاً عن الطريقة التي أتى بها هذا العمل أو ذاك بعد أن علم وتعلم سبل الخير والشر[١].

٢- **الأساس القانوني:** فالقرآن يعلمنا أن أحداً لن يحاسب على أفعاله دون أن يكون قد علم مسبقاً أحكامها، وقد أوجب الله على نفسه أن يُعلم الناس قبل أن يُحمِّلهم مسئوليتهم، لأنه يرى من الظلم تعذيب القرى التي تغفل عن واجباتها لأنها لم تعرفها.

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص١٥٥.

٣- **النية أو الإرادة:** فالعمل اللاإرادي يُستبعد من مجال المسئولية، وهو ليس عملاً بالمعنى الأخلاقي ولكنه مجرد (حادث)، فالمسئولية ليست مجرد سن العمل إلى الإنسان بصفة عامة، بل لابد من وجود صفة مميزة وهي أن هذا العمل يؤدي إلى استحقاق من الثواب أو العقاب، إنه العمل الذي يكون القصد إليه كاملاً، فالإنسان إذاً غير مسئول عن الأعمال اللاإرادية التي تفتقر إلى الإرادة، ولا هو مسئول عن الفعل الخطأ غير المقصود وذلك لعدم استهدافه الشر أو الخطأ، فلا محاسبة للإنسان على عمل إلاّ إذا توافر القصد الكامل له.

٤- **حرية الإرادة:** عندما تتحقق شروط المعرفة والعمل الإرادي على بصيرة من الفرد بما يعمل، فليس معنى ذلك أن العمل قد استوفى جميع شروط المسئولية، إذ هناك شرط آخر على درجة من الأهمية، وهو القدرة وفاعلية الجهد الإنساني، أو بتعبير آخر: الحرية، ويؤكد الدكتور محمد عبدالله دراز على ذلك بقوله: "إن مبدأ التناسب بين المسئولية والحرية تمتد جذوره بعمق في الضمير الإنساني، بحيث لا يمكن تجاهله دون أن يبدو في موقفنا شيء من الإجحاف"(١).

فالمعرفة إذاً لا تكفي دليلاً على تحمل المسئولية الخلقية، ما لم تصاحبها النية أو الإرادة الجازمة تجاه الخير أو الشر، وهذه الإرادة وحدها – أيضاً- لا تكفي، بل لابد من الاختيار والقدرة والحرية التي تسلك معها في نمط واحد، حتى تكون المسئولية الخلقية هي الصفة الجوهرية التي تميز الإنسان المسئول في هذه الحالة(٢).

---

(١) **د. محمد عبدالله دراز:** ص ١٧٩ – ١٨١.

(٢) **د. محمد عبدالله عفيفي:** النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٩٨٨م، ط١، ص١٨٧، ١٨٨.

المسئولية والجزاء:

كون الإنسان مسئولاً عن أعماله، فإن هذا يفترض الجزاء ثواباً على طاعة الإلزام، أو عقاباً على مخالفته من خلال المقابلة بالمثل، وهذا حق وعدل، ولا يؤاخذ الإسلام المذنب بالبريء كما فعلت المسيحية عندما عممت العذاب على بني آدم لخطيئة أبيهم الذي أكل من ثمرة الشجرة المحرمة، وأن المسيح كفارة لخطايا كل العالم(١).

ولا يكون الجزاء إلا حيث تكون المسئولية، ويقسم الجزاء إلى جزاء دنيوي وجزاء أخروي، والجزاء الدنيوي يكون جزاء من العباد وجزاء من رب العباد، ومجازاة الله تعالى للناس في الدنيا تكون للتحذير وللتخفيف من عذاب الآخرة، ومن جزاء الله في الدنيا تشريعه القصاص والحدود، وهذه الحدود جوابر بمعنى أنها تجبر الذنب وتكفره وتمحوه، وهناك الجزاء الأخروي، وتزخر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالدلائل على أنواع الجزاء الأخروي، والكثير منها يكون الجزاء من جنس العمل، فمن ستر مسلماً ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه، والراحمون يرحمهم الله.

إن أكثر من نصف القرآن، وأكثر من نصف السنة النبوية في المسئولية والجزاء، فكل التكاليف وكل الأوامر والنواهي تقع في المسئولية، وكل الوعيد والترغيب والترهيب تدخل في نطاق الجزاء، والقصص القرآنية التي تتحدث عن حال السابقين، إنما تتكلم عن مسئولياتهم وجزائهم، كما أن الحكمة الملتمسة من خلق الإنسان وتعميره للأرض وعبادته لله تكمن في المسئولية، وكذلك الحكمة الملتمسة من خلق الجنة والنار واليوم الآخر تكمن في الجزاء(٢).

---

(١) **د. قاسم جابر:** الإلزام الخلقي في الإسلام، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٢٤ ص ١٤٦، وما بعدها بتصرف.

(٢) **د. حصة الغزالي:** المسئولية والجزاء في الكتاب والسنة، ص٥٣١.

إذا كانت المسئولية هي نتيجة طبيعية للإلزام، فإن الجزاء نتيجة طبيعية لها، والجزاء بهذه الصورة يمثل أهمية مزدوجة وذلك باعتباره دافعاً إلى التمسك بالقيم الأخلاقية، وأيضاً لأن العدالة تقتضيه، فالجزاء يقتضي العدالة، والعدالة تقتضي الجزاء، وهما يجعلان للأخلاق معنى وأثراً وبدونهما تفقد الأخلاق مفهومها فتصبح أمراً لا أثر له.

والجزاء هو: "المكافأة على الشيء، والمكافأة مقابلة نعمة بنعمة".

وبعبارة أخرى: نرى أن الجزاء "مثوبة" على عمل الخير أو عقوبة على عمل الشر.

والقانون الأخلاقي يبدأ بتوجيه الدعوة إلى الإرادة، فتستجيب لتلك الدعوة، ثم بإعلان الالتزام تأتي المسئولية، كاستجابة جازمة، ثم يأتي التقويم بعد ذلك، أي يأتي الجزاء(١).

فالجزاء هو رد فعل القانون الخلقي على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون والملتزمين به.

وللجزاء أربعة ميادين وهي:

١- **الجزاء الطبيعي:** إن الخارج على النظام الخلقي سينال جزاءه من الطبيعة نفسها، وقد يرجع هذا الجزاء إلى قوانين الطبيعة نفسها مثل: الإصابة بالأمراض بسبب مخالفة القوانين الأخلاقية كالإصابة بالأمراض السرية، بسبب ارتكاب جريمة الزنا، والأمراض التي تصيب الإنسان بسبب مخالفة قانون النظافة أو تناول المسكرات، وتجاوز حد قانون الاعتدال في العمل يؤدي إلى الإصابة بالإرهاق النفسي والعصبي ويكون هذا سبباً للإصابة بالأمراض المختلفة كما يؤدي إلى الفشل في الحياة عموماً.

---

(١) **د. محمد عبدالستار نصار:** دراسات فى فلسفة الأخلاق، دار القلم للنشر، الكويت ١٩٨٢م، ط١، ص٣٧٣.

وقد يرجع الجزاء إلى قانون الطبيعة الاجتماعية كمخالفة قانون الصدق يؤدي إلى زوال الثقة بالأشخاص والتعامل الاجتماعي وزوال الثقة هذا يؤدي إلى انعدام الاطمئنان في الحياة الاجتماعية ولا خير في حياة بدون اطمئنان، وكذلك الأمر لو تعدى الناس قانون حرمة النفس الإنسانية وتفشت جريمة القتل فالأمر لا يؤدي هنا إلى زوال الحياة المطمئنة فحسب بل يؤدي إلى زوال الحياة بزوال الناس وهكذا نجد أن زوال الأخلاق يؤدي بوجه عام إلى زوال الحياة، وأكبر جزاء على مخالفة الأخلاق هو انعدام هذه الحياة من تلك الوجوه ويكون الأمر على خلاف ذلك متى روعيت القوانين الأخلاقية، فالطبيعة تجازي الناس عند ذلك بالحياة السعيدة التي يسودها الاطمئنان والمحبة والرخاء، لأن قوانين الأخلاق عموماً هي قوانين الحياة التي تضفي عليها الصفة الإلزامية والقداسة، فالأخلاق تأمر بالجدية في العمل والإخلاص، وتجنب الاصطدام بقوانين الطبيعة واحترام حقوق الناس الطبيعية والعمل من أجل خدمة الإنسانية وهي كلها قوام الحياة السعيدة الدائمة وهنا نجد الإسلام قد ربط قوانينه الأخلاقية بالقوانين الطبيعية فنهى عن كل شيء يضر فعله بالطبيعة وأمر كل شيء ينفع فعله بالطبيعة[1].

٢- **الجزاء الأخلاقي:** يتمثل الجزاء الأخلاقي في نوم الضمير أو رضاه كعقوبة أو مكافأة عاجلة، فالإنسان يباشر عمله طبقاً لقواعد يعرفها ويحس بها، وبعد ذلك تحدث في نفسه أصداء معبرة عن الرضا في حالة النجاح، وعن الألم في حالة الفشل، ويحلل الدكتور محمد دراز ذلك متوصلاً إلى أن الندم لا يعتبر جزاء لما يقترفه الفرد، وهو ليس بعقوبة أو مكافأة للقانون الأخلاقي، ويرى كذلك أن المتعة والألم الذين نحس بهما بعد أن نفعل خيراً أو شراً هما رد فعل

(١) **د. مقداد يالجن**، علم الأخلاق الإسلامية، دار عالم الكتب للنشر، الرياض ١٩٩٢م، ط١، ص ١٣٧، ١٣٨.

لضميرنا على ذاته، أكثر من أن يكون رد فعل للقانون علنياً، فهما تعبيران طبيعيان يدلان على توافق في الذات مع المثل الأعلى، أو على تضاد الذات معه، وهذا ما تدل عليه السنة النبوية في قول الرسول (ﷺ): "إذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن"(١)، فالحديث هنا لم ينظر إلى حالات النفس هذه على أنها ثواب يقتضيه سلوكنا، وإنما رأى فيه ترجمة وتحديداً للإيمان الخُلُقي.

وهذا يبين على أن الندم لا ينشئ جزاءًا ثوابياً ولا جزاءًا إصلاحياً، ولذلك فالجزاء الخلقي الصحيح هو ذلك الشعور الذي يعيد تثبيت القانون المنتهك وهو (التوبة)، والندم هو مقدمة التوبة وإعداد لها، وهو محاولة لتجميع قوى النفس ورأب لصدعها، وتجد في حرارة النوم المؤلمة وسيلتها لتلتئم وتقوى، وتعاود حمل الأمانة من جديد بمزيد من الطاقة والحماس، وقد يثير الندم التوبة، وقد لا يثيرها على الإطلاق، أي أنه لا يستتبعها كنتيجة مبدئية(٢).

وعلى هذا فالتوبة هي الجزاء الخلقي، ولكون التوبة كذلك، فإنها ذاتها ندم على ما سلف، وإقلاع عنه في الحال، وعزم على عدم المحاورة في المستقبل ولا يمكن أن تؤدي التوبة وظيفتها الإسلامية إذا اقتصرت على الأسف على ما اقترفنا من شر والعزم على عدم المحاورة، ولكنها موقف أكثر تعقيداً، موقف ينظر للماضي والحاضر والمستقبل، ويتجلى في الأفعال لا في اتخاذ خط سلوكي جديد فقط، بل أيضاً في إعادة تجديد البناء الذي تهدم بصورة منهجية، فليس المهم التوبة فقط، وإنما الإصلاح، إصلاح ما نقص أو فسد أو أفسده الإنسان(٣).

---

(١) **مسند الإمام أحمد:** ج٥، ص٢٥١.

(٢) **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، ص٢٤٨-٢٥٠.

(٣) **الإمام ابن القيم الجوزية:** مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغـــدادى، دار الكتاب العربي للنشر، بيروت ٢٠٠٣م ، ط٧، ج١، ص٢٠٢، ٢٠٣.

٣- **الجزاء الشرعي:** ويقصد بالجزاء الشرعي تلك العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله، فيظلمون بذلك أنفسهم أولاً، وغيرهم ثانياً.

فإذا كان الجزاء الأخلاقي يتصل بتركيب النفس من حيث تزكية النفس والإصلاح فالجزاء الشرعي جزاء تأديبي أو عقابي لكل من تسول نفسه تجاوز قانون الحياة في المجتمع الإسلامي.

وإن الترغيب والترهيب وما له من أثر بالغ في الردع عن مخالفة القواعد الشرعية، ويؤازرها في ذلك ما يسمى بـــ (الوازع الأخلاقي) وما ينجم عنه من نهي النفس عن الهوى وابتعاد الإنسان عن ارتكاب الخطايا والآثام، إن ذلك كله قد لا يكفي لكف البعض عن الظلم والاعتداء واقتراف الجرائم، فكان لابد من الوازع المتمثل في الحدود الشرعية، والذي يرتبط بارتكاب الأمور المنهي عنها شرعاً، تلك الأمور التي تُعدَّ في حد ذاتها من المفاسد الأخلاقية، ومن هنا ندرك أهمية الجزاءات الشرعية في دفع المفاسد الأخلاقية.

وبالنظر في نظام الجزاء في التشريع الإسلامي يمكن أن نميز فيه بين مرتبتين أساسيتين هما:

(أ) **الحدود:** وهي الجزاءات التي حدها الشرع بدقة وصرامة، وهي حق من حقوق الله تعالى، ولا تسقط بالعفو ولا بالصلح، وهي تتعلق بالجرائم التالية: الزنا، السرقة، القذف، شرب الخمر، البغي، قطع الطريق، الردة.

(ب) **التعزيرات:** وهي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جناية أو معصية لا حد فيها، ويتعلق بالتعزير فكان: حق الله، وحق العباد وما كان حق العباد فيه غالباً فيجوز قبول العفو فيه، وما كان حق الله فيه أغلب فبرغم عفو المتضرر فإن التعزيز فيه واجب[١].

---

(١) د. محفوظ على عزام: الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دار الهداية للنـــشر، القاهرة ١٩٨٦م، ط١، ص٣٩ .

٤- **الجزاء الإلهي:** إذا كان الجزاءان الأخلاقي والشرعي ينتميان إلى مجال الواقع الدنيوي، فالجزاء الإلهي يرتبط أساساً بنظام التوجيه الإسلامي في القرآن والسنة.

وبما أن النوعين السابقين من الجزاء لا يكفيان، فلابد من مراجعة نهائية وشاملة لتضع الحق في نصابه، وذلك هو دور الجزاء الإلهي بحيث يستدرك على من لم يشمله الجزاء الأخلاقي أو الجزاء القانوني أو يستكمل ما يحق الجزاءين من نقص وتقصير، فلابد وأن تكون هناك رجعة للعدالة ويمكن القول بأن القرآن قد حدد الجزاء الإلهي في ناحيتين:

(أ) **الجزاء الإلهي في العاجلة:** أي الجزاء الإلهي في الدنيا، وله عدة جوانب: فالجانب المادي ويعني به أن من يقوم بفعل الأوامر، ويلتزم بقواعد السلوك الخلقي يحصل على نصيب من ثوابها في الدنيا، وكذا من يتجنب الفضيلة ويأتي ضدها فإن الله يصب سخطه عليه في غضبه على هذا السلوك المنحرف، أما من جانب تأييد الله لجماعة المؤمنين، فالتأييد والنصر من الله لجماعة المؤمنين الملتزمين بالقانون الخُلُقي، وهذا التأييد يشمل النصر والمساعدة والتثبيت أما خصوم المؤمنين فهم مسوقين على الهزيمة والعذاب، وموعودون بالذل ومشمولون بالخزي، وفي نص واحد يبين الحق (ﷻ) هذا الجزاء الدنيوي في قوله (ﷻ): **{وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الْصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}** [سورة النور – الآية ٥٥].

ومن جانب الهداية والرشاد فالأمر لا يقتصر على ما سبق من جزاءات مادية أو جماعية فالجزاء الإلهي في الدنيا يمتد إلى هداية المؤمنين، وهداية قلوبهم، ويبدد ظلماتهم ويوصلهم إلى النور، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، ويمنحهم القوة على تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، ويصلح نواياهم،

ويزيدهم نوراً، ويهدي خطاهم على دروب مستقيمة، وينزل في قلوبهم الطمأنينة والسكينة.

ويبقى الجانب المتعلق برضا الله (ﷻ) وحبه، وهذا هو الهدف الأسمى الصالح للحصول عليه، حيث سعى المسلم من خلال سلوكه إلى التمثل بالصفات المستحسنة عند الله فهو من المحسنين والصابرين والمقسطين والمتقين والمتطهرين والمتوكلين، ومحبيه الذين يقاتلون في سبيله، إن المسلم كلما وقف موقفاً يحترم فيه أوامر الله تعالى كلما اقترب من رضاه ورحمته، وفي نفس الوقت كلما وقف موقفاً لا يحترم فيه أوامر الله تعالى كلما اقترب من سخط الله وعدم حبه.

(ب) **الجزاء الإلهي في الآجلة:** لا يقتصر الجزاء الإلهي على الجزاءات الدنيوية والتي سبق أن بيناها، بل إن الجزاء الإلهي يمتد إلى الآخرة فهناك عودة للعدالة الإلهية. ومن ثم نجد تفرقة واضحة بين المؤمنين الصالحين، والظالمين، فكل منهم جزاؤهم في الآخرة مما يجعل العمل الدنيوي مرتبطاً أيضاً بالجزاء الأخروي قال (ﷻ): **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** [سورة الجاثية – الآية: ٢١].

خصائص الجزاءات الأخلاقية الإسلامية:

وأخيراً يمكننا أن نستخلص الخصائص الأخلاقية الإسلامية المتعلقة بالجزاء في النقط الآتية:

١- إن الإسلام ربط الأخلاق بالجزاء ربطاً لا انفصام له، سواء كان هذا الجزاء عاجلاً أو آجلاً، فالجزاء نتيجة تنتجها الأخلاق كما تنتج الشجرة الثمرة، وربط الأخلاق بالجزاء أمر ضروري، لأنه يزيد قيمة الأخلاق كما تزيد قيمة

الشجرة ثمرتها، وبذلك اختلفت الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الكانطية التي تربط الأخلاق بالجزاء والمكافأة، والأخلاق من غير جزاء ومكافأة لا طعم فيها أو قليلة الفائدة وناقصة القيمة(١).

٢- إن الإسلام راعى في الجزاء الأخلاقي الطبيعة الإنسانية، فللإنسان جانب مادي وجانب معنوي في طبيعته، وقد راعى الإسلام الجانبين معاً عندما قرر للسلوك الأخلاقي الجزاء المادي والمعنوي أيضاً.

٣- ربط الإسلام مصير الإنسان من حيث السعادة والشقاوة في الحياة الدنيا والآخرة بالعمل الأخلاقي، فنتيجة الأخلاق الحسنة السعادة في الحياتين ونتيجة الأخلاق السيئة الشقاوة والتعاسة في الدارين معاً(٢).

(١) **د. محفوظ على عزام:** الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ص٤٠.

(٢) **د. مقداد يالجن:** علم الأخلاق الإسلامية، ص ١٣٩، ١٤٠.

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات

أولا: النتائج ومنها:

– توسيع الإسلام نطاق مفهوم الأخلاق وميدان العمل بها، حيث يدخل في نطاق الأخلاق كل سلوك إرادي صادر من إنسان راشد من حيث الخير والشر والحسن والقبح، كما يدخل في هذا السلوك عمل القلب من النية والإرادة والاعتقاد وتترتب عليه المسئولية والجزاء، سواء كان هذا السلوك ينظم علاقة الفرد بنفسه أو بالناس أفرادا وجماعات أو بالكائنات الحية الأخرى.

ومن هنا تصبح الحياة كلها ميدانا للعمل الأخلاقي ؛ ومن ثم يخضع هذا السلوك لنظام ولمعيار يتحدد بحسب العلاقة بين الذات الفاعلة وبين الطرف الآخر الذي له صلة بها من حيث العمل ومن حيث الغاية أو من حيث العملية والغاية القصدية، والإسلام في كل ذلك لم يكن نظريا في التنظيم الأخلاقي لسلوك الأفراد.

– أصالة الأسس التي أقام عليها الإسلام نظامه الأخلاقي، فقد كان الأساس الميتافيزيقي والاعتقادي ضروريا للأخلاق؛ وذلك بتوجيه الإنسان إلى طريق الحق في التفكير وطريق الخير في السلوك؛ فكان أقوى إلزام للإنسان بإتباع هذا الطريق أو ذاك.

– تقويم الإسلام للأخلاق تقويما متكاملا لأنها تجمع بين قيم السماء والأرض ولهذا فقد اهتم الإسلام كل الاهتمام بالأخلاق، ويدعو الناس إليها دائما؛ لأن سعادة المرء مرهونة بها في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى أيضا.

– الأخلاق الإسلامية أكمل وأصلح أخلاق للحياة الإنسانية، ولا يرجع ذلك إلى قدرتها على مسايرة تطور الحياة فحسب، بل إنها قد بلغت من التكامل

والصلاحية حدا مثاليا، ذلك أنها تحتضن جميع الفضائل الإنسانية والأعمال الخيرة لصالح الفرد والمجتمع، وتنفر عن جميع الرذائل والشرور، ثم إنها لا تكتفي بمجرد تبصير طريق الخير وطريق الشر للإنسان بل تستخدم جميع وسائل الإلزام بإتباع طريق الخير، وتستخدم جميع الوسائل لإبعاد الإنسان عن طريق الشر.

– وضع الإسلام معايير متعددة لقياس العمل الأخلاقي، فلم يكتفِ الإسلام بوضع معيار واحد لقياس العمل الأخلاقي كما فعلت الاتجاهات والمدارس الأخلاقية الأخرى، إذ وضعت لنفسها معيارا واحدا، فمنهم من قاس ذلك بالمعيار العقلي والآخر قاس ذلك بالمعيار الجمالي والأخير بالمعيار النفعي وما إلى ذلك، وكل يعطي له قيمة بحسب معياره، وتزيد هذه القيمة في نظر الإسلام الذي يقيس ذلك بكل المعايير.

ثانيا: التوصيات ومن أهمها:

– ينبغي الاهتمام بدراسة علم الأخلاق وقيمه لمعرفة الخير من الشر والحق من الباطل والعلم من الجهل ليظهر ذلك جليا في سلوك الأفراد مما يعود بالنفع على المجتمع كله.

– طرح موضوعات بحثية تعنى بشرح النصوص الشرعية– القرآن والسنة– المشتملة على المبادئ والقيم الأخلاقية في التراث الفكري الإسلامي، وتشجيع وتوجيه الجهات المختصة لمتابعة وتقويم المؤلفات والدراسات في هذا العلم ونشر تلك الأبحاث أو نتائجها النافعة بشكل موسع داخل البلاد وخارجها.

– تبنى الحملات التثقيفية في أوساط الشباب داخل الجامعات وخارجها لمناقشة القضايا الأخلاقية في التراث الفكري الإسلامي، ومقارنتها بالاتجاهات والمدارس الأخلاقية في العصر الحديث.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

– **صحيح مسلم**، دار طيبة للنشر، الرياض ٢٠٠٦م، ط١.

– **د. أحمد الملا:** عالمية الإسلام وإعداد المواطن الصالح، دار قتيبة للنشر، القاهرة ١٩٧٣م، ط١. – أحمد ماهر: القيم الأخلاقية في الإسلام، مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية، ١٤٠٣هـ.

– **الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري:** الحاوي الكبير، تحقيق: عل معوض – عادل عبدالموجود، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت ١٩٩٤م، ط١.

– **د. إمام عبد الفتاح إمام:** الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ط١.

– **اميل بوترو:** العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، تحقيق وترجمة: د. احمد فؤاد الأهوانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ط١.

– **د. توفيق الطويل:** مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٣م، ط١.

– **د. حصة أحمد الغزالي:** المسئولية والجزاء في الكتاب والسُّنَّة، حولية كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد السابع عشر (٢٠٠٠).

– **د. عبدالقادر البحراوي:** دراسات في فلسفة الأخلاق عند المسلمين، الدار الأندلسية للنشر الأسكندرية، بدون تاريخ طبعة.

– **د. عبدالكريم زيدان:** أصول الدعوة الإسلامية، مكتبة القدس، دار الوفاء، ١٩٩٢م، ط٦.

- **د. عبدالوهاب خلاف:** علم أصول الفقه، دار القلم للنشر، بيروت ١٩٨٦م، ط١٠.
- **د. قاسم جابر:** الإلزام الخلقي في الإسلام، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٢٤.
- **د. محمد أحمد عبدالقادر:** من قضايا الأخلاق في الفكر الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ٢٠١٧ م، ط١.
- **الشيخ. محمد الغزالي:** خلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة ١٩٨٧م، ط١.
- **الإمام محمد بن ادريس الشافعي:** الرسالة، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار الحلبي للنشر، القاهرة ١٩٤٠م، ط١.
- **محمد بن قدامة:** المغني على مختصر الخرقي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركى، دار عالم الكتب للنشر، بيروت ١٩٩٧م، ط٣.
- **محمد بن مكرم بن منظور:** لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ط ١.
- **د. محمد عبد الحفيظ:** دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، بدون ناشر وتاريخ طبعة.
- **د. محمد عبدالرحمن مرحبا:** المرجع في تاريخ الأخلاق، دار جرس برس للنشر، لبنان ١٩٨٨م، ط١.
- **د. محمد عبدالله دراز:** دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، مراجعة السيد بدوي، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت ١٩٧٣م، ط١.
- **د. محمد عبدالله عفيفي:** النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٩٨٨م، ط١.

- **د. محمد عبدالستار نصار:** دراسات في فلسفة الأخلاق، دار القلم للنشر، الكويت ١٩٨٢م، ط١

- **د. محمد عقله الابراهيمى:** النظام الأخلاقي في الإسلام، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان- الأردن ١٩٨٦، ط١.

- **د. محفوظ على عزام:** الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دار الهداية للنشر، القاهرة ١٩٨٦م، ط١.

- **الإمام محمد أبوحامد الغزالي:** إحياء علوم الدين، دار المنهاج للنشر، جدة ٢٠١١م، ط١.

- **د. محمدعبدالرحمن مرحبا:** الموسوعة الفلسفية الشاملة، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، عويدات للنشر والطباعة، بيروت ٢٠٠٧م، ط١.

- **د. مراد وهبه:** المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة ٢٠٠٧م، ط٥ .

- د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت ٢٠٠٤م، ط١.

- **د. مصطفى غالب:** برتراند رسل، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦م، ط٢.

- **د. مقداد يالجن محمد:** علم الأخلاق الإسلامية، دار عالم الكتب للنشر، الرياض ١٩٩٢م، ط١

- **د. منصور على رجب:** تأملات في فلسفة الأخلاق، مطبعة مخيمر للنشر، القاهرة ١٩٥٣م، ط١.

- **د. نادية محمد العمري:** القياس في التشريع الإسلامي، دار هجر، القاهرة ١٩٨٧م، ط١.

- **د. نازلي إسماعيل:** فلسفة القيم، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ١٩٧٨م، ط١.

- **د. يعقوب المليجي:** الأخلاق في الإسلام مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية، مؤسسة الثقافة الجامعية للنشر، الأسكندرية ١٩٨٥م، ط١.

- **د. يوسف حامد العالم:** المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م، ط١.

- **الإمام ابن القيم الجوزية:** مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي للنشر، بيروت ٢٠٠٣م، ط٧.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	٤٠٧
الملخص باللغة الإنجليزية	٤٠٩
المقدمة	٤١١
المبحث الأول: ماهية الأخلاق في الإسلام	٤١٤
المبحث الثاني: الإلزام والالتزام الخلقي	٤٢٥
المبحث الثالث: المسئولية والجزاء الأخلاقي	٤٥٢
الخاتمة	٤٦٤
المصادر والمراجع	٤٦٦
فهرس الموضوعات	٤٧٠